جامعة المنصورة
كلية الآداب

علاقات بنى مَزْيَد بالقوى السياسية فى العراق

من بدايات القرن الخامس الهجرى حتى منتصف القرن السادس

دكتور
عبدالمجيد أبو الفتوح بدوى
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد
بكلية الآداب
جامعة المنصورة

١٩٨٧

تمهيد :

بنو مزيد أسرة عربية بدوية من قبيلة « أسد » إحدى القبائل الشمالية التى ينتهى نسبها إلى خزيمة بن مدركة ، وهذه القبيلة كانت تقيم قبل الإسلام فى مساحة شاسعة من الأرض ، تكاد تخترق شبه الجزيرة العربية : من المدينة المنورة حتى شواطىء الفرات . وعندما جاء الإسلام لم يقف بنوأسد منه — أول الأمر — موقف القبول والرضا ، بل جاهروا بالعدوان للرسول وللدعوة فى أكثر من مناسبة ، لعل أبرزها أنهم شكلوا جناحاً مهماً فى تحالف الأحزاب الذين حاصروا مدينة الرسول فى العام الخامس للهجرة ، وحين أذعنوا وقبلوا الإسلام فى العام التاسع للهجرة لم يلبث أن ظهر فيهم مدعٍ للنبوة هو طليحة الأسدى الذى لقيت دعوته استجابة من قومه بعد وفاة الرسول ﷺ ، فارتد معظمهم عن الإسلام إلى أن أخضعهم أبو بكر رضى الله عنه ، بعد حروب خاضها معهم خالد بن الوليد ، فعادوا إلى الإسلام من جديد ، ووجدنا عدداً كبيراً منهم يشاركون بعد ذلك فى حركة الفتوح الإسلامية الكبرى ، وخاصة على الجبهة الفارسية ، وبدأت مدينة الكوفة — بعد تأسيسها — تستقبل أعداداً كبيرةً منهم ، ألفوا فيما بعد جزءاً كبيراً من سكانها . وفى أحداث الفتنة الكبرى انضم عدد كبير منهم إلى جيش الإمام على ، ووقفوا إلى جانبه فى حروبه ضد الخارجين عليه ، واستمر معظمهم على ولائهم له حتى استشهد ، فانتقل ولاؤهم إلى بنيه وحفدته ، ومن ثم أصبحوا يشكلون قطاعاً هاماً من جمهور المتشيعين للإمام على وأولاده .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بدأت موجة جديدة من هجرات أفراد هذه القبيلة من قلب جزيرة العرب باتجاه الشمال ، فضربوا خيامهم على حدود البصرة ، كما وصل جزء منهم إلى القادسية ، وبعد قرن من الزمان — تقريباً — أخذ بعض أفراد هذه القبيلة ممن وصلوا إلى العراق يتسللون من مضارب خيامهم فى البادية إلى داخل مجتمعات الحضر . وكان من بين هؤلاء رجل يدعى : الشيخ مَزْيد الأسدى الذى استقر به المقام بقرية تقع على قناة « النيل » (١) وتسمى باسمها ، فاتخذ منها قاعدة لتأسيس إمارة عربية حملت اسمه فيما بعد ، وعرفت باسم : إمارة بنى مزيد (٢) ثم جاء أحد

(١) النيل : بليدة فى سواد الكوفة ، قرب حلة بنى مزيد يخترقها خليج كبير يمتد من الفرات الكبير ، حفره الحجاج بن يوسف ، وسماه بنيل مصر (ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٣٤)

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « أسد » مجلد ٣ ص ٢٧٥ — ٢٨٠

حفـدته وهـو : صدقـة بن دبيس بن منصـور بن علـى بن مزيـد (٤٧٩ — ٥٠١ / ١٠٨٦ — ١١٠٨) فتمكن من تأسيس عاصمة جديدة لهذه الإمارة على الشاطىء الغربى للفرات ، قريباً من الكوفة ، وهى مدينة « الحِلة » (٣) ووصلت إمارة بنى مزيد فى عهده إلى قمة ازدهارها : حضارة ، وعمراناً ، واتساعاً ؛ إذ استطاع أن يبسط نفوذ إمارته فى بعض الفترات على البصرة والكوفة ، وهيت وواسط وتكريت ، كما تمكن من إخضاع بعض القبائل البدوية فى العراق لنفوذه ، حتى عرف بين معاصريه بملك العرب . وقد عُمّرت هذه الإمارة قرابة قرن ونصف من الزمان ، وكان من الطبيعى أن تكوّن لنفسها علاقات مع مختلف القوى السياسية المحيطة بها ، هذه العلاقات التى نحاول فى هذا البحث الكشف عنها ، وتوضيحها .

(٣) الحلة : علم لعدة مواضع ، أشهرها : حلة بنى مزيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى « الجامعين » وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس ، وكانت منازل آبائه فى القديم الدور من « النيل » فلما قوى أمره واشتد أزره ، انتقل إلى الجامعين فى غربى الفرات ، ليبعد عن الطالب ، وذلك فى المحرم من عام ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م وكانت قبل ذلك أجمة تأوى إليها السباع ، فنزل بها بأهله وعساكره ، وبنى بها المساكن الجليلة ، والدور الفاخرة ، وتألق أصحابه فى مثل ذلك ، فصارت ملجـأ ، وقـد قصدهـا التجـار ، فصـارت أفخـر بلاد العـراق ، وأحسـنها مـدة حـياة سـيف الدولـة . (معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩٤)

الظروف السياسية التى شكلت علاقات بنى مزيد

كانت المساحة الزمنية التى شغلتها هذه الإمارة مفعمة بالأحداث الجسام ؛ إذ شهدت فيها منطقة العراق والشام قوى سياسية متعددة ، حيث كانت المنطقة تمر بمرحلة دقيقة أشبه ماتكون بحالة المخاض : فالنصف الأول من القرن الخامس الهجرى الذى شهد تطور هذه الإمارة بعد تأسيسها ، شهد أيضاً تفكك البيت البويهى الذى كان يسيطر على مقاليد الأمور السياسية فى فارس والعراق ، ويبسط هيمنته وسطوته على الخلافة العباسية فى بغداد . وجاء تفكك هذا البيت بعد وفاة الإخوة الثلاثة : على والحسن وأحمد الذين أسسوا الدولة ، وأرسوا دعائمها ، وانطلقت المنازعات بين أبناء هذا البيت فذهبت بوحدته ، وأتت على قوته ، الأمر الذى نال — فى النهاية — من هيبة الدولة وقوتها ، وأضعف سيطرتها على جندها : ديالمة وأتراكا ، فانطلقوا يعبثون بمصالح الرعية ، ويشيعون الفساد والإضطراب فى أنحاء العراق .

كما شهدت هذه المساحة الزمنية أيضاً هجرات كثير من القبائل العربية من مضارب الخيام فى البادية إلى مناطق الحضر فى العراق والشام ، محاولة أن تجد لها موطىء قدم تحقق لنفسها فيه نفوذ أو سلطاناً ، وذلك كعرب بنى خفاجة الذين جاوروا بنى مزيد فى وسط العراق ، وبنى عقيل الذين استقر بهم المقام فى الجزيرة الفراتية قبل هذه الفترة بقليل ، وبنى قشير ، وبنى كلاب الذين استقروا فى بلاد الشام ، محاولين إيجاد نفوذ سياسى لهم فى مناطق متعددة منه . وكان من الطبيعى أن تتشكل العلاقات بكل صورها من التعاون والتنافس بين هذه الإمارات المتجاورة من ناحية ، وبينها وبين القوى السياسية الكبرى فى المنطقة من ناحية أخرى .

وإذا كان النصف الأول من القرن الخامس الهجرى قد شهد هذه التحولات فى منطقة العراق والشام ، فإن هذه الفترة شهدت تحولات أخطر وأكبر كانت تتدافع أحداثها وتتلاحق فى الشرق الإسلامى . وقد تمثلت هذه التحولات فى ظهور السلاجقة على المسرح السياسى ، وقضائهم على نفوذ الغزنويين فى خراسان وفارس ، وأخذوا يتطلعون بأبصارهم تجاه الغرب حيث الخلافة العباسية ، عاملين على أن يرثوا مابقى لبنى بويه من نفوذ فى عاصمة الخلافة ، وقد نجحوا بالفعل فى الوصول إلى بغداد فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى . وكان على الإمارات العربية المتناثرة هنا وهناك أن تبحث لنفسها عن

صيغة للتعامل مع هذا السيد الجديد الذى سيطر على مقاليد الأمور فى العراق وبلاد الشام . وكانت إمارة بنى مزيد من بين هذه الإمارات بطبيعة الحال ، فشغلت علاقاتها بسلاطين السلاجقة معظم المساحة الزمنية التى نحن بصدد البحث فيها .

ولم يكن ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث السياسية فى العراق والشام هو التحول الوحيد الذى شهدته المنطقة ، وإنما حدث تحول خطير فى أواخر القرن الخامس حيث وصلت أول حملة صليبية إلى المشرق الإسلامى ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م واستطاعت أن تنجح فى مهمتها ، وتؤسس لها أربع كيانات صليبية فى منطقتى الجزيرة الفراتية ، وبلاد الشام . وكان من الطبيعى أيضاً أن تكون هناك أنواع من العلاقات بين القوى السياسية الإسلامية فى المنطقة وهذه الكيانات الصليبية التى استقرت على مقربة منها .

إن هذه الظروف السياسية التى عاشتها منطقة العراق والشام فى هذه الفترة تقتضينا أن نركز منهجنا فى البحث على عدد من القضايا الأساسية التى يحتويها الإطار العام لعلاقات بنى مزيد بالقوى السياسية المجاورة لهم مثل :

١ ــ علاقة بنى مزيد بالبويهيين
٢ ــ علاقتهم بالسلاجقــة
٣ ــ علاقتهم بالخلافة العباسية

وهذه القضايا ــ كما أشرنا ــ قضايا رئيسية ، وهذا يعنى أن هناك علاقات أقل حجماً مع بعض القوى الأخرى سنتعرض لمناقشتها من خلال معالجتنا لعلاقات بنى مزيد بهذه القوى السياسية الكبرى .

******

١ ــ علاقتهم بالبويهيين :

شهدت علاقات بنى مزيد بالبويهيين تطوراً ونمواً فى أخريات أيام البيت البويهى . وقد سارت هذه العلاقات فى إتجاهين : **الإتجاه الأول** كان ينزع إلى المحافظة على المكاسب السياسية والإقليمية التى حققها أمراء هذه الأسرة . وفى سبيل الحفاظ على هذه المكاسب كان لابد أن يشكلوا علاقاتهم مع سلاطين بنى بويه فى إيران والعراق بحيث تتلاءم وتتوافق مع الأهداف التى يسعون لتحقيقها . فالصراع فى ذلك الوقت بين فروع البيت البويهى فى إيران والعراق كان قائماً على قدم وساق ، وكان على آل مزيد أن يفيدوا من هذا الصراع فى المحافظة على كيانهم ، وفى تحقيق مكاسب جديدة لهم ؛ ذلك أن إمارتهم الصغيرة ــ بوضعها الدقيق فى وسط العراق ــ كانت تقع بين طرفى النزاع أو بين شقى الرحى . فبويهيو إيران كان يمتد نفوذهم فى أوقات كثيرة ليصل إلى جنوبى العراق . والبويهيون فى العراق يبسطون نفوذهم ــ ولو من الناحية الشكلية ــ على إمارة بنى مزيد ، ومن ثم فإن هذه الإمارة كانت تقع فى منطقة المد والجزر بالنسبة لنفوذ البويهيين فى إيران ، ونفوذ البويهيين فى العراق ، فكان عليها إذا ماأرادت الحفاظ على مكاسبها ألا تقف موقفاً سلبياً من الصراع الدائر بين أمراء البيت البويهى . فكانت ترمى بثقلها وراء الطرف الذى لايشكل خطورة على كيانها السياسى ، بهدف دفع ماتتوقعه من أخطار ، لذا رأينا آل مزيد يقفون مناصرين لمشرف الدولة البويهى فى العراق ضد أخيه سلطان الدولة عندما زحفت جيوش الأخير من الأهواز إلى وسط العراق ، واستولت على مدينة « واسط » فانضم دبيس بن على ابن مزيد الى قوات مشرف الدولة التى حاصرت جند سلطان الدولة ، وأجبرتها على الإستسلام فى عام ٤١١ /١٠٢٠م وقطعت بذلك الخطبة لسلطان الدولة فى العراق ، وخطب لأخيه بها (٤) .

ولم تتوقف سياسة « آل مزيد » ــ فى سبيل الحفاظ على مكاسبهم ــ على التنقل بولائهم بين الأطراف المتنازعة فى داخل البيت البويهى ، بل إن مصالحهم الشخصية كانت تدفعهم أحياناً الى الإنحياز إلى جانب سلاطين آل بويه فى العراق فى صراعهم مع بعض القوى العربية الأخرى ، وكانوا يهدفون فى هذه الحالة الى تحسين ظروفهم السياسية والاقتصادية ،

---

(٤)   الكامل جـ ٩ ص ٣١٧ ــ ٣١٨

أو إلى كبح جماح جيرانهم من أبناء القبائل الأخرى إذا طغى نفوذهم ، واشتدت سطوتهم ، ومن ذلك ماحدث فى عام ٤١١ /١٠٢٠ عندما تحالف دبيس بن على بن مزيد مع جند السلطان البويهى ضد قرواش بن المقلد العقيلى (أمير الموصل) فانهزم قرواش أمامهم ، وأسر فى المعركة ، ونهبت خزائنه . وكان قرواش قد مد نفوذه فى هذه الفترة إلى بعض المناطق فى غربى الفرات قريباً من مناطق نفوذ بنى مزيد ، فلما انهزم سيطر نواب السلطان على هذه المناطق . (٥)

ويبدو أن استقرار نفوذ قرواش — بعد ذلك — فى بعض المناطق كالكوفة والأنبار كان يسبب قلقاً لبعض القبائل العربية المجاورة كبنى أسد وبنى خفاجة ، فاضطرت القبيلتان إلى توحيد صفوفهما فى مواجهة قرواش ، واستعانوا بجند السلطان البويهى ، ثم هاجموا أملاك قرواش فى أرض السواد ، فزحف إليهم من الموصل ، والتقى بهم على أبواب الكوفة ، ولما علم أنه لاطاقة له بمواجهة هذا التحالف انسحب ليلاً الى مدينة الأنبار فتبعوه ، فانسحب منها ، فاستولت عليها القوات المتحالفة (٦) .

ولكن اتساع نفوذ بنى خفاجة فى هذه المنطقة لم يكن أقل خطرا على دبيس من خطر قرواش ؛ ففى نفس العام الذى تحالف فيه دبيس مع بنى خفاجة ضد قرواش وجدنا العلاقات تسوء بينه وبين منيع بن حسان (أمير بنى خفاجة) ويبدو أن اختلاف الرجلين على توزيع المغانم التى تخلفت عن هزيمة قرواش كانت سببا فى انهيار تحالفهما ، وانقض أمير خفاجة على عاصمة حليفه السابق : فأغار عليها (٧) .

ومع حرص بنى مزيد على اتباع هذه السياسة فى علاقتهم بالبويهيين ، والتى استهدفت الحفاظ على مكاسبهم ، وجدناهم يتيحون الفرصة — أحيانا — أمام سلاطين بنى بوية للتدخل فى شئونهم . وكان يحدث ذلك عندما يشتد التنافس على السلطة بين أفراد هذا البيت ، وتلجأ الأطراف المتصارعة الى السلاطين يستمدون منها النصرة والتأييد . فعندما توفى أبو الحسن على بن مزيد فى عام ٤٠٨ هـ/١٠١٧ وعهد بالأمر من بعده لابنه

---

(٥) الكامل جـ ٩ ص ٣٢١ ، ٣٢٢

(٦) المرجع السابق ص ٣٥٢ وأبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٢

(٧) المرجع السابق ص ٣٥٤ ، ٣٥٥

دبيس ، نازعه فى ذلك أخوه « المقلد » الذى طلب المساعدة من الجند فى بغداد ، فأوقعوا الهزيمة بأخيه ، ونهبوا عاصمته ، وفر دبيس إلى واسط ، لكنه استطاع أن يسترد ملكه بعد رحيل الجند إلى بغداد ، وفر أخوه ملتجئاً الى بنى عقيل فى الموصل (٨) .

ولم تتوقف أطماع المقلد فى ملك أخيه ، ولذا وجدناه فى عام ٤٢٠ هـ /١٠٢٩ يكرر المحاولة من جديد ، فتحالف مع أمير بنى خفاجة ، وكاتبا السلطان جلال الدولة فى بغداد يطلبون منه المساعدة ، وأرسلا أموالاً لتجهيز العسكر ، فلم يكن أمام دبيس إلا أن يقطع الخطبة لجلال الدولة ، ويخطب لمنافسه عماد الدولة : « أبو كاليجار » الذى كان قد تمكن من بسط نفوذه على البصرة ، وشجعه على الزحف على مدينة واسط فاستولى عليها ، وكانت من أملاك عمه جلال الدولة ، ولكن جلال الدولة لم يستسلم لهذا الأمر فتوجه إلى الأهواز عاصمة أبى كاليجار ، فخرب ونهب وسبى ، ثم عاد الى العراق واستعاد مدينة واسط مرة أخرى ، ثم صمم على أن ينتقم من دبيس فأرسل جنوده مرة أخرى فى عام ٤٢١ /١٠٣٠ لمساعدة المقلد ضد أخيه ، فانهزم دبيس أمامهم ، ولم يعد إلى إمارته إلا بعد أن سعى فى الصلح مع جلال الدولة ، وتعهد بأن يدفع للسلطان فى مقابل ذلك عشرة آلاف دينار (٩) .

وماكان لهذا الصلح أن يكتب له الإستمرار والبقاء فى ظل هذه الظروف السياسية القلقة فى منطقة العراق فما لبثت الحرب أن اشتعل لهيبها من جديد بين جند جلال الدولة بقيادة أبى الحارث البساسيرى وبين دبيس ، ذلك أن أخاً آخر لدبيس هو ثابت بن على بن مزيد قد خرج عليه مستعيناً بالبساسيرى ، فاستولى على بعض أعماله ، وهزم قواته ، ففر دبيس أمامهم مستنجداً ببعض القبائل العربية . واحتدمت الحرب — بعد ذلك — بين الأخوين ، ولم يحقق أحدهما نصراً حاسماً ، فتراسلا فى طلب الصلح ، وتم الإتفاق بينهما فى عام ٤٢٥ هـ / ١٠٢٤ على أن يستقر دبيس فى إمارته ، ويمنح أخاه إقطاعاً يعيش منه (١٠)

ويبدو أن السنوات التى تلت ذلك شهدت تحسناً فى العلاقات بين دبيس والسلطان جلال الدولة ، فقد تعاون الاثنان فى القضاء على بعض الأفراد العسكريين الذين خرجوا على

---

(٨) الكامل جـ ٩ ص ٣٠٤

(٩) المرجع السابق ص ٣٧٤ — ٣٧٧

(١٠) الكامل جـ ٩ ص ٤٣٦ — ٤٣٧

طاعة السلطان : ففى عام ٤٢٨ هـ / ١٠٢٧ أعلن أحد كبار أمراء الترك ويدعى : « بارسطُغان » الخروج على جلال الدولة ، وتحول بولائه إلى جانب أبى كاليجار البويهى ، فخرج جلال الدولة لحربه ، مستعيناً بقرواش العقيلى ، وبدبيس ، وقد انتهى الموقف بهزيمة هذا القائد التركى ومقتله .

ويلاحظ فى هذه الفترة كثرة خروج كبار القواد على سلاطين آل بويه ؛ ذلك أن هؤلاء السلاطين — بعد دخولهم بغداد — قد عجزوا عن سلوك سياسة متوازنة بين عنصرى الجيش : الديالمة والأتراك ، الأمر الذى فتح باب التنافس على مصراعيه بين أمراء الجيش من العنصرين ، وفقد السلاطين سيطرتهم عليهم ، فتكررت ثورات الجند ، كما تكرر النهب والسلب ، وعمت الفوضى ، وعجز السلاطين عن ضبط الأمور فى بغداد ، فلم يكن أمامهم بد من طلب المساعدة من أمراء العرب لإخماد هذ الفتنة التى يثيرها الجند أو قادتهم . ويبدو أن اجتماع أميرين من أمراء العرب مع جلال الدولة لمواجهة أحد كبار القواد الترك كان يمثل احدى الحلقات فى سلسلة الصراع بين العرب والأتراك فى العراق ، ذلك أن ابن الأثير يعلق على هزيمة « بارسطغان » بقوله : « ومنذ ذلك ضعف أمر الأتراك ، وطمع فيهم الأعراب ، واستولوا على اقطاعاتهم ، فلم يقدروا على كف أيديهم عنها » (١١) .

وتكرر هذا الموقف ثانية عندما ثار الجند الأتراك على جلال الدولة فى بغداد سنة ٤٣١ /١٠٣٩ فاستنجد ثانية بدبيس وقرواش ، واجتمعت عساكرهما عنده وكان ذلك سبباً فى تراجع الجند عن ثورتهم ، واستقرت قواعد الصلح بينهم وبين السلطان (١٢) .

وإذا كان الإتجاه الأول بالنسبة لإمارة بنى مزيد فى علاقتها بالبويهيين قد استهدف الحفاظ على تحقيق المكاسب السياسية والإقليمية التى حققها أمراء هذا البيت فإن **الإتجاه الثانى** كان ينزع إلى التأكيد على الذاتية العربية فى مواجهة الأعاجم ، واستعادة بعض الحقوق العربية المسلوبة فى شئون السياسة والحكم ، ذلك أن العنصر العربى فقد الكثير من نفوذه إن لم يكن النفوذ كله بعد ماصنعه المأمون والمعتصم من استخدام العنصر التركى فى جيش الخلافة ليكون عنصر توازن بين العرب والفرس ، وسرعان مافقد العرب والفرس

---

(١١) الكامل جـ ٩ ص ٤٥٤

(١٢) المرجع السابق ص ٤٧١

نفوذهم ، وسيطر الجند الأتراك سيطرة مطلقة بعد توسع المعتصم فى استخدام هذا العنصر وتزايد ضعف الخلفاء الذين جاءوا بعده ، فأتاحوا لهم التسلط والإستبداد فى الشئون السياسية والعسكرية على حد سواء . واستمر هذا الأمر إلى أن ظهر البويهيون على الساحة السياسية ، وتمكنوا من القبض على أزمة الأمور فى العراق فتوزع النفوذ فى عاصمة الخلافة بين الديالمة الذين وفدوا مع بنى بوية ، وبقايا الجند الأتراك فى عاصمة الخلافة الذين لم يستطع البويهيون لسبب أو لآخر زحزحتهم عن كثير من المكاسب التى حققوها فى فترة سيطرتهم على شئون الخلافة والدولة . وعندما نشأت الإمارات العربية المتناثرة فى شمال العراق ووسطه فى النصف الثانى من القرن الرابع ، كان لابد أن تعمل على تحقيق بعد المكاسب للعنصر العربى ، وتستعيد بعض الحقوق التى سلبها منه الأعاجم ، ومن هنا كان من الطبيعى أن تتصادم مصالح هذه الإمارات — ومنها امارة بنى مزيد — مع مصالح بعض القادة العسكريين من ديالمة وأتراك الذين منحوا اقطاعات واسعة قريبة من مناطق نفوذها ، فكان لامناص من الصراع مع بعض هذه القوى العسكرية .

ولقد أذكى هذا الصراع النزعة القبلية لدى الأمراء العرب ورعاياهم فكانت المواجهة بين الفريقين تتسم بأن مواجهة بين العرب والعجم ، فلا عجب أن رأينا معظم المصادر التاريخية التى تؤرخ لهذه الفترة تطلق على الأمير الخامس من أمراء بنى مزيد : صدقة بن دبيس (٤٧٩ — ٥٠١ هـ /١٠٨٦ — ١١٠٨) لقب ملك العرب ، ويعرف الرجل بهذا اللقب بين معاصريه ، وكأن الهدف من ذلك التأكيد على أن يكون هناك ملك للعرب فى مواجهة ملوك العجم .

ومن المواجهات المبكرة التى خاضتها إمارة بنى مزيد مع بنى بويه ماقام به ثانى أمرائها : أبو الحسن على بن مزيد فى عام ٣٩٢ هـ /١٠٠١ عندما دخل هو وقومه من بنى أسد حلفاء لبنى عقيل أمراء الموصل ضد السلطان بهاء الدولة ، فهاجموا المدائن ، وحاصروها ، وأوقعوا بالديالمة والأتراك خسائر جسيمة ، وأسروا الكثيرين منهم ، ونهبوا عسكرهم . ولكن الجند البويهى جمع صفوفه من جديد ، والتقى بالعرب مرة أخرى عند الكوفة ، واشتد القتال بين الطرفين فهزمت العرب ، ونهبت دور آل مزيد . وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى منى بها العرب فى نهاية المعركة ، إلا أن انتصارهم السابق على الديالمة والأتراك قد جرأ المفسدين من اللصوص وقطاع الطرق على إشاعة الفوضى فى العاصمة ، فنهبوا وقتلوا ، وأحرقوا المساكن ولم يستطع البويهيون ضبط الأمور فى بغداد واشاعة

الأمن فيها إلا بعد جهد جهيد (١٣) .

وإذا كانت الحادثة السابقة تمثل صداماً بين بعض الإمارات العربية — ومنها إمارة بنى مزيد — والسلطان البويهى فإن هناك حالات أخرى كثيرة كان الصراع فيها شديداً بين هذه الإمارة وبعض كبار القادة الأتراك ، وذلك عندما كانت تصطدم المصالح والطموحات لكلا الفريقين ففى عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ اندلعت الحرب بين دبيس والجند الأتراك فى مدينة واسط ، لأن الملك الرحيم قد أقطع دبيساً بعض الأراضى الداخلة فى اقطاع بعض الجند الأتراك ، فأرسل هؤلاء إلى دبيس يتهددونه ويتوعدونه ، ولما خرجوا لقتاله أعد لهم كميناً فى الطريق ، فأوقع بهم ، وقتل منهم الكثير ، وغنم أموالهم ودوابهم . وأمام وقوف الملك الرحيم بجانب دبيس ، لم يسع هؤلاء الترك إلا أن يكاتبوا كبيرهم فى بغداد : أبو الحارث البساسيرى الذى أخذ نجمه يلمع فى هذه الفترة يطلبون منه العون والمساعدة فى دفع دبيس عنهم ، مقابل أن يتنازلوا عما أقطعه الملك الرحيم لدبيس (١٤) ولكن المشكلات التى كانت تموج بها عاصمة الخلافة فى أواخر أيام بنى بوية وفى مقدمتها الصراع المحتدم بين السلطة المدنية ممثلة فى رئيس الرؤساء : ابن المسلمة والسلطة العسكرية ممثلة فى الجند الأتراك بقيادة البساسيرى قد صرفته عن تقديم أى عون للأتراك فى واسط . علاوة على أن العلاقات بين دبيس والبساسيرى كانت تسير سيرا حسنا فى هذه الفترة ، ذلك أن دبيسا بذكائه الفطرى قد أدرك أن البساسيرى أصبح يمثل مركز الثقل الحقيقى فى عاصمة الخلافة ، وأن الملك الرحيم — آخر سلاطين بنى بويه — قد أصبح صورة بلا معنى ، ومن ثم سعى إلى تحقيق الوصلة بالبساسيرى ، والارتباط به برباط قوى هو رباط الصهر والنسب ، فزوج ابنه وولى عهده بهاء الدولة منصورا بابنة البساسيرى وذلك فى عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ .

بدأ دبيس بهذه المصاهرة فترة من التحالف العسكرى مع البساسيرى لضرب خصومه ومناوئيه من أبناء القبائل الأخرى : فعندما هاجمت بنو خفاجة عاصمته فى عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ وفتكوا بأهلها استنجد بالبساسيرى الذى اشترك معه فى قتالهم حتى أجلاهم عن دياره ، وفروا منهزمين ، فتتبعهم حتى أوقع بهم ،

---

(١٣) الكامل جـ ٩ ص ١٧٠ — ١٧١

(١٤) المرجع السابق ص ٥٥٧ — ٥٥٨ .

ونهب أموالهم ، وشردهم كل مشرد (١٥)

وعندما هاجم قريش بن بدران ★ (أمير الموصل) مدينة الأنبار ، واستولى عليها من أصحاب البساسيرى (١٦) سار البساسيرى من بغداد لاستعادتها ، وانضم إليه دبيس بن مزيد ، وعاونه فى حصارها حتى دخلها عنوة ، ثم عاد الى بغداد (١٧)

إن هذا التعاون الوثيق بين دبيس والبساسيرى لم يبدأ — كما رأينا — إلا حينما وقفت دولة بني بويه على عتبة النهاية ، لذا لم يقدر لهذا التحالف القائم على النسب والصهر أن يؤتى ثماره المرجوه بعد أن لاح فى الأفق أن السلاجقة فى الطريق إلى بغداد عندما تأزمت الأمور بين الخليفة العباسى والبساسيرى الذى اتهم من قبل الخليفة بأنه يكاتب المستنصر الفاطمي خليفة مصر ، ويسعى للقضاء على خلافة العباسيين ، الأمر الذى دفع بالخليفة القائم بأمر الله إلى التعجيل بإستدعاء طغرلبك — سلطان السلاجقة — إلى بغداد ، ليحمى البيت العباسى بعد أن عجز بنو بويه عن توفير الحماية والأمن له

ولم يجد البساسيرى ملجأ يأوى إليه إلا عند صهره دبيس عندما بدأ طغرلبك فى التحرك نحو بغداد ، وكان البساسيرى مع الملك الرحيم فى واسط فتوجها إلى بغداد ، وفى الطريق جاء رسول من الخليفة بأمر الملك الرحيم بالانفصال عن البساسيرى ، فامتثل للأمر ، وبدأت علاقات بنى مزيد بالسلاجقة تتكون منذ هذا الوقت المبكر ، إذ أرسل طغرلبك عقب دخوله بغداد فى رمضان سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥ إلى دبيس يأمره بإبعاد البساسيرى عن دياره ، فانتقل البساسيرى عنه إلى « رحبة مالك » بالشام ، وخطب دبيس لطغرلبك فى دياره .

---

(١٥) الكامل جـ ٩ ص ٥٩٢ ، ٥٩٩

★ تولى إمارة الموصل بعد وفاة عمه : أبو كامل بركة بن المقلد فى عام ٤٤٣هـ /١٠٥١ (ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ١١٥)

(١٦) كان البساسيرى قد إستولى عليها من قرواش بن المقلد سنة ٤٤١ ه بعد أن إستنجد أهلها بالبساسيرى بسبب سوء سياسة قرواش فيهم ، وقد أحسن البساسيرى إلى أهلها ، وأصلح أحوالها (الكامل جـ ٩ ص ٥٥٩)

(١٧) الكامل جـ ٩ ص ٦٠٠ — ٦٠٢

علاقة بنى مزيد بالسلاجقة :

ترتب على دخول طغرلبك بجنده إلى بغداد الكثير من مظاهر الاضطراب والعنف ، وإشتبك العامة مع جنده فى قتال عنيف ، بسبب ماقاموا به من النهب والسلب . واستمر الجند فى نهبهم لكثير من أحياء بغداد حتى أسرفوا فى ذلك ، وإحتج الخليفة على طغرلبك ، فإعتذر له بكثرة الجند ، وعجزه عن ضبطهم (١٨)

وفى وسط هذا الجو الملبد بالغيوم بدا لكثير من أمراء العرب فى العراق أن هؤلاء الفاتحين الجدد ربما يشكلون خطرا على كيانهم السياسى الذى جاهدوا من أجل بنائه طويلا ، خاصة وأن كياناتهم قد تدعمت فى ظل ضعف بنى بويه فى آخريات أيامهم . وهم اليوم يواجهون سيدا جديدا قويا يحاول فرض سلطانه على الجميع بقوة وإصرار ، ومن ثم فإن أحلامهم فى الحفاظ على دويلاتهم ، والارتقاء بها ، وتدعيم نفوذها ستتعرض للخطر إن لم يواجهوا الموقف بما يحفظ عليهم مكاسبهم . ولقد اختلفت أساليب المواجهة بإختلاف وجهات نظر هؤلاء الأمراء ، وتنوع إجتهاداتهم الشخصية فى كيفية مواجهة هذه المشكلة : فوجدنا قريش بن بدران (أمير الموصل) يستبق الأحداث عندما تأكد له أن السلاجقة فى الطريق إلى العراق ، فخطب لطغرلبك فى أعماله كلها فى عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ أى قبل أن يصل طغرلبك إلى بغداد ، فأبدى حسن النية ، وسلامة الطوية مقدما لهذا السيد الجديد (١٩) . أما دبيس فلم يسعه إلا الامتثال والطاعة عندما أمره طغرلبك — بعد دخوله بغداد — بإبعاد البساسيرى عن دياره ، ثم خطب لطغرلبك فى أعماله كلها .

كان سلوك قريش بن بدران ودبيس المزيدى وأمثالهما نوع من الاجتهاد استهدف الحفاظ على كيانهم السياسى بأيسر الطرق ، لكن كان هناك إتجاه آخر غذته عوامل عده ، وهو أن بعض أمراء العرب فى منطقة العراق لما إستشعروا الخطر الداهم من جانب سيطرة القوى السلجوقية الشابة على هذا الإقليم رأوا أن ينتقلوا بولائهم السياسى عن خلفاء بنى العباس الذين سيطر السلاجقة عليهم إلى الخلفاء الفاطميين فى مصر . وقد شجع على هذا

---

(١٨) الكامل جـ ٩ ص ٦١١ — ٦١٤

(١٩) الكامل جـ ٩ ص ٦٠٠

الاتجاه حركة البساسيرى من العراق الى الشام ، ومكاتبته للمستنصر الفاطمى ، ووصول كثيرمن الإمداد إليه ، وبدا فى الأفق أن هناك جولة من الصراع بين القوى السنية فى العراق والشيعية فى مصر ، وأن هذه الجولة على الأرجح — من وجهة نظر هذا الفريق — ستكون الغلبة فيها للقوى الشيعية . كما شجع على هذا الاتجاه أيضا أن معظم القبائل العربية التى هاجرت إلى العراق أو إلى شمالىّ الشام فى القرن الرابع كانت تدين بالتشيع للعلويين . فلم يكن غريبا أن نرى بعض زعماء القبائل فى العراق يقطعون خطبة الخليفة العباسى ، ويخطبون للمستنصر الفاطمى فى عام ٤٤٧ /١٠٥٥ م فعل ذلك زعيم بنى خفاجة فى المناطق التى كان يسيطر عليها غربى الكوفة عند أطراف بادية الشام ، وسار على نهجه علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان الذى اتخذ أعلام الفاطميين البيضاء شعاراً له ، وخطب بمدينة واسط للمستنصر الفاطمى (٢٠)

على أن أصحاب الاتجاه الذين آثرو السلامة ، وأعلنوا الخضوع المبكر للسلاجقة لم يستمروا على موقفهم هذا طويلا ، وإنما حدثت ظروف وتطورات جعلتهم يغيرون موقفهم تجاه السلاجقة ، ومن هذه الظروف : الضغوط التى مارسها السلاجقة على بعض هذه القوى حتى تتأكد تماماً من صدق موقفها ، وإخلاصها الأكيد لها . ومنها أيضا : أن الخلافة الفاطمية ألقت بثقلها المعنوى والمادى — بالقدر الذى سمحت به ظروفها فى هذه الفترة — وراء حركة البساسيرى فى الشام ، وانتخبت لهذه المهمة أحد الدعاة الفاطميين البارزين الذى طوف فى إيران والعراق قبل وصول السلاجقة إلى بغداد ، والتقى بكثير من زعماء العرب ، وأمراء بنى بويه فى هذه المناطق ، وخبر نفسيات هؤلاء وأولئك وهو : المؤيد فى الدين داعى الدعاة هبة الله الشيرازى الذى قام بالدعاية اللازمة لثورة البساسيرى حيث جذب إليها الكثير من زعماء العرب فى العراق والشام ، ساعده فى مهمته — إلى حد ما — الميل النفسى لهؤلاء الزعماء تجاه أبناء البيت العلوى ، ثم ماقدمته الخلافة الفاطمية من أموال لتأليف قلوبهم .

كان من بين هؤلاء الزعماء الذين غيروا موقفهم المعلن تجاه السلاجقة دبيس المزيدى . ولاتوضح لنا مصادر التاريخ العام أسباب تحوله الذى بدا مفاجئا ، فقد رأينا الرجل يذعن

(٢٠) الكامل جـ ٩ ص ٦١٥ ، ٦٢٤

بالخضوع لطغرلبك ، ويطرد صهره البساسيرى تنفيذا لأوامره ، ويخطب له فى جميع أعماله ، ثم نراه فجأة ينضم إلى حركة البساسيرى فى الشام ، ويخوض معه معركـة كبرى فى مدينة سنجار فى شمالى العراق ضد قطلمش بن أرسلان (ابن عم طغرلبك) وقريش ابن بدران الذى مايزال إلى الآن محتفظا بولائه للسلاجقة ، وكان ذلك فى نهاية شوال من عام ٤٤٨هـ /١٠٥٦ . وقد أسفرت المعركة عن هزيمة جيش السلاجقة وسقوط قريش بن بدران جريحا ، فأتى به إلى دبيس ، فأقنعه بالدخول فى طاعة المستنصر ، وكان لدى قريش الاستعداد النفسى للمسير فى هذا الاتجاه فهو من أسرة تدين بالتشيع ، وقد سبق لعمه قرواش عندما كان أميرا للموصل أن خطب للحاكم بأمر الله سنة ٤٠١هـ /١٠١٠ فى المناطق التى يسيطر عليها العقيليون آنذاك وهى : الموصل ، والأنبار ، والمدائن ، والكوفة وغيرها (٢١)

وإذا كانت مصادر التاريخ العام لم تقدم تفسيرا لتحول دبيس من النقيض إلى النقيض ، فإن هبة الله الشيرازى فى سيرته يشير إلى بعض الأسباب التى دفعت دبيسا إلى الانضمام لحركة البساسيرى بعد أن أبدى استعدادا للخضوع للسلاجقة ، ومن هذه الأسباب : أن طغرلبك لم يكتف بما أعلنه دبيس من طاعة ، بل طلب منه ومن قريش بن بدران رهائن من أولادهما تضمن له إستمرارهما على الولاء والطاعة ، وفرض عليهما من الأموال مالاطاقة لهما باحتماله ، وقد انتهز المؤيد هذه الظروف ، وكتب إلى دبيس يهجن عليه قصده حيث قصد ، وإعتماده ماااعتمد ، ويحثه على اللحاق بهم ، والسكون معهم « فورد عليه الكتاب وهو فيما هو أشد من ضغطة القبر ... فسرى عنه بوصول كتابى إليه ، ولمح أنوار الفرج بين يديه ، فركب متن الطريق ، مواصلا ليله بنهاره ... بموافقه من قريش على فعله ، وموافقه على أن يكون كل منهما فى جانب ... فأى كفة من كفتى الميزان رجحت كان الذى هو منهما فى الراجح ردءا لمن هو فى الناقص ، يحفظ الأعز منهما الأذل ، والأكثر منهما الأقل » (٢٢)

وواضح من عبارة المؤيد الأخيرة أن كلا من دبيس وقريش بن بدران كانا يضعان مصلحتهما السياسية فوق كل إعتبار ، وهذا ماحملهما على تقسيم نفسيهما بين طرفى

---

(٢١) الكامل جـ ٩ ص ٣٢٣ ، ٣٢٥

(٢٢) هبة الله الشيرازى سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة . تحقيق محمد كامل حسين ص ١٢٥

النزاع ليحفظ الأعز منهما الأذل على حد تعبير هبة الله الشيرازى ، كما أن هذا الموقف هو الذى دفعهما الى التذبذب ، وعدم الاستقرار على حال : فمرة إعلان بالخضوع لنفوذ السلاجقة ، وولاء للخليفة العباسى السنى ، ومرة أخرى وقوف بجانب البساسيرى الثائر على سلطان السلاجقة ، وبيعة للمستنصر الفاطمى ، ومن هنا فإن الرجلين لم يستمرا طويلا على ولائهما للمستنصر بعد أن لبسا خلعته التى أرسلت إليهما ، وبعد أن خطب له قريش على منابر الموصل . فبمجرد أن بدأ طغرلبك فى الزحف على شمال العراق باتجاه الموصل لجأ الرجلان فى أوائل عام ٤٤٩ هـ /١٠٥٧ إلى هزارِسْب بن بنكير (أمير البصرة والأهواز) فوسطاه فى أن يشفع لهما عند السلطان ، ويصلح أمرهما معه ، فنجحت وساطته وعفا طغرلبك عنهما ، وأشار عليهما هزارسب بالقدوم على طغرلبك ، فامتنعا خوفا من هذا اللقاء ، ولكن دبيسا أرسل معه ابنه : بهاء الدولة « منصورا » الذى أعلن الخضوع نيابة عن والده . فأقرهما طغرلبك على أعمالهما ، وكتب لهما بذلك كتابا (٢٣)

ومع ذلك فإن دبيسا لم يستمر على هذا الولاء ، فبمجرد أن حدثت فتنة إبراهيم ينّال ، وخروجه ثائرا على أخيه لأمه طغرلبك ، وإضطرار الأخير إلى أن يترك العراق ، ويمضى وراءه لإخماد ثورته فى إيران ، وجدنا دبيسا يغير موقفه ،وينضم إلى البساسيرى الذى زحف على بغداد ، وسيطر على مقاليد الأمور بها ، وخطب للمستنصر الفاطمى على منابرها ، وعندما عاد طغرلبك إلى بغداد مرة أخرى فر البساسيرى من أمامه الى مدينة واسط ، وإستعد للقاء جند السلاجقة ، ووقف دبيس إلى جانبه ، فقتل البساسيرى فى المعركة ، وأسر لدبيس ثلاثة أبناء بينهم ولى عهده منصور بن دبيس أما دبيس نفسه فقد فر بأهله وحرمه محتميا بالبطيحة * وكان ذلك فى ذى الحجة من عام ٤٥١ هـ /١٠٦٠ (٢٤)

وبعد أن انتهت حركة البساسيرى على هذا النحو ، وخمدت الفتنة ، انحدر طغرلبك من بغداد إلى واسط ، وهناك التقى به « هزارسب بن بنكير » فتوسط عنده للمرة الثانية

---

(٢٣) الكامل جـ ٩ ص ٦٢٩

* البطيحة : أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وتسمى البطائح ، لأن المياه تبطحت فيها أى سالت واتسعت فى الأرض . تغلب عليها أيام بنى بويه أقوام من أهلها ، وتحصنوا بالمياه والسفن ، وصارت تلك المياه لهم كالمعاقل الحصينة إلى أن إنقضت دولة الديلم ثم دولة السلاجقة (معجم البلدان جـ ١ ص ٤٥٠ — ٤٥١)

(٢٤) الكامل جـ ٩ ص ٦٤٩ — ٦٥٠

فى أن يعفو ويصفح عن دبيس ، ثم أحضره معه لخدمة السلطان ، فقبل عذره ، وعفا عنه ، وصحب دبيس طغرلبك فى عودته من واسط إلى بغداد (٢٥)

والملاحظ من خلال كل هذه التطورات أن موقف دبيس أثناء حركة البساسيرى كان موقفا مذبذبا فهو مع طغرلبك أولا ، ثم مع البساسيرى ثانيا ، ثم مع طغرلبك والخليفة العباسى بعد موقعة « سنجار » وأخيرا سار فى ركاب البساسيرى بعد رحيل طغرلبك عن بغداد حتى تم مقتل البساسيرى ، فطلب العفو من سلطان السلاجقة ، والواضح أن الرجل كان فى محاولاته تلك يضع مصلحة السياسة فوق كل اعتبار (٢٦) كما كان للإغراء المادى أثره فى تقلبه على هذا النحو . فهبة الله الشيرازى يذكر أن دبيسا عندما التقى به فى الشام كان مترددا « حتى إذا نشب فى المال الجزيل ظفره ، ولم تطوع له نفسه أن يوليه ظهره إستجاب للحضور ، والاستيثاق منه بالتحليف ، والاشتمال على ماخرج باسمه من التشريف » (٢٧)

ولكن إستقرار الأمر للسلاجقة فى بغداد بعد القضاء على ثورة البساسيرى قد مهد السبيل أمام إستقرار علاقات بنى مزيد بالسلاجقة طوال فترة حكم السلطانين : ألب أرسلان وملكشاه ، أى من تاريخ وفاة طغرلبك فى عام ٤٥٥ /١٠٦٣ حتى وفاة ملكشاه فى عام ٤٨٥ /١٠٩٢ بسبب قوة الدولة من ناحية ، وتماسك البيت السلجوقى من ناحية أخرى ، الأمر الذى لم يدع فرصة للمغامرين من أمراء العرب وغيرهم كى يحققوا لأنفسهم المزيد من المكاسب على حساب القوى السلجوقية المتصارعة كما سيحدث بعد وفاة ملكشاه

لم يعكر صفر العلاقات بين بنى مزيد والسلاجقة فى هذه الفترة سوى محاولة لتحريض السلطان ألب أرسلان على دبيس قام بها هزارسب بن بنكير (أمير خوزستان) الذى

---

(٢٥) الكامل جـ ١٠ ص ٨

(٢٦) جاء فى كتاب العهد الذى كتبه هبه الله الشيرازى لدبيس نيابة عن الخلافة الفاطمية : أن الإمام المستنصر قلده الزعامة على عرب العراق ، وجعل إليه النظر فى ذلك من حد شرق الفرات إلى أقصى مايفتح الله تعالى لأمير المؤمنين من البلاد .

(سيرة المؤيد ص ١٢٨)

(٢٧) سيرة المؤيد ص ١٢٧ . وقد ذكر المؤيد فى موضع آخر أن نصيب دبيس من الأموال التى حملها المؤيد معه كان خمسين ألف دينار (المرجع السابق ص ١٦٢)

رأيناه قبل ذلك يتوسط مرتين لدى طغرلبك ليعفو ويصفح عن دبيس أثناء أحداث ثورة البساسيرى . ولكن يبدو أن المنافسة بين الرجلين قد أفسدت طيب العلاقات بينهما ، فحاول هزارسب — الذى أصبح قريبا من السلطان لزواجه بأخته — أن يحذره من تزايد نفوذ دبيس ، وأشار عليه بأخذ بلاده منه ، ولكن السلطان لم يتخذ من دبيس موقفا حتى توفى هزارسب فى عام ٤٦٢ هـ /١٠٦٩ فأسرع دبيس لزيارة السلطان فى همدان ، ليزيل ماقد يكون علق بنفسه من آثار نتيجة لوشاية « هزارسب » به ، وصحبه فى رحلته مسلم بن قريش (٢٨) (أمير الموصل) وقد خرج الوزير نظام الملك لاستقبالهما ، والترحيب بهما ، ثم عاد الرجلان إلى بلادهما بعد أن تزوج أمير الموصل بأخت السلطان أرملة هزارسب (٢٩) .

إن فترة السلام هذه بين بنى مزيد والسلاجقة قد استغرقت بقية عهد دبيس الذى توفى فى عام ٤٧٤ هـ /١٠٨١ وكذلك فترة حكم ابنه بهاء الدولة منصور الذى توفى فى عام ٤٧٩ هـ /١٠٨٦ وقد حرص بهاء الدولة هذا عقب وفاة أبيه دبيس على أن يسير إلى السلطان فى عاصمة ملكه ، فأقره ملكشاه على ماكان لأبيه ، ثم رأينا ملكشاه يأمره بمعاونة عميد الدولة بن جهير (٣٠) فى الاستيلاء على ديار بكر من بنى مراوان (٣١) فخرج معه هو وابنه صدقة بن منصور ، ولكنهما بعد أن وصلا معه إلى مدينة « ميافارقين » فارقاه عائدين إلى بلادهما ، بسبب قسوة العسكر السلجوقى فى معاملة القبائل العربية فى الجزيرة الفراتية ، فقد استولوا على أماكن إقامتهم ، وغنموا أموالهم ، وسبوا حريمهم ، وقام الأمير صدقة — الذى كان مايزال وليا لعهد أبيه — بفداء الأسرى من بنى عقيل الذى وقف أميرهم مسلم بن قريش إلى جوار بنى مراوان يرد عنهم خطر عميد الدولة ابن جهير (٣٢) .

---

(٢٨) كان أميرا على الموصل فى الفترة من ٤٥٣ هـ — ٤٧٨ /١٠٦١ — ١٠٨٥

(٢٩) الكامل جـ ١٠ ص ٦١

(٣٠) هو محمد بن جهير الملقب بعميد الدولة ، خدم ثلاثة خلفاء من بنى العباس ، ووزر لاثنين منهم . توفى فى عام ٤٩٣ هـ (ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ١١٨)

(٣١) بنو مروان : أسرة كردية حكمت منطقة ديار بكر من مدينة ميافارقين فى الجزيرة الفراتية من عام ٣٨٠ هـ ٤٨٩ /٩٩٠ — ١٠٩٦ ، وإنتهى حكمهم على يد السلاجقة (طبقات سلاطين الاسلام ص ١١٦)

(٣٢) الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ — ١٣٥

وفى ربيع الأول من عام ٤٧٩ هـ /١٠٨٦ توفى بهاء الدولة منصور بن مزيد بعد أن حكم مايقرب من خمس سنوات . وليس أدل على مكانة هذا الرجل ، ومنزلته فى بلاط السلاجقة من مقالة الوزير نظام الملك عندما سمع نبأ وفاته : « لقد مات أجلُّ صاحب عمامة » (٣٣)

تولى سيف الدولة صدقة بن منصور إمارة بنى مزيد بعد وفاة والده ، وقد سار إثر توليه إلى السلطان ملكشاه ، فخلع عليه ، وولاه ماكان لأبيه . ويعد صدقة أقوى أمراء هذا البيت ، وأكثرهم تأثيرا فى الأحداث ، إذ بلغت الإمارة فى عهده أوج إتساعها ، وأزدهارها . وهو الذى أنشأ عاصمتها « الحِلة » ـــ التى ماتزال باقية إلى اليوم ـــ مدينة زاهرة فى وسط العراق وذلك فى عام ٤٩٥ هـ /١١٠١ (٣٤)

وهذا التطور لإمارة بنى مزيد فى هذه الفترة لم يعتمد على قوة شخصية صدقة فقط ، وإنما يعود فى جزء كبير منه إلى طبيعة الفترة نفسها ، وماحفلت به من تطورات جسام استغلها ذوو الطموح والمغامرون السياسيون لتحقيق مكاسب سياسية خاصة بهم على حساب السلطة المركزية ، ذلك أن عهد القوة فى حياة السلاجقة قد بدأ يختفى إثر وفاة ملكشاه فى عام ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ ووقوع الصراع بين أبنائه ، وبعض إخوته على العرش ، ثم وقوع الخلاف بين الأبناء أنفسهم على هذا الأمر . فملكشاه لم يترك غير صبية صغار كان أكبرهم بركيارق الذى لم يتعد العشرين من عمره ، ومع ذلك لم يعهد إليه بالأمر من بعده ، وإنما قدم عليه أصغر الأبناء ، ولم يكن يتجاوز الرابعة من العمر ، وذلك بتأثير من أمه التى كانت أثيرة لديه . وأمام هذا الوضع الشاذ وجد « تتش » (أخو ملكشاه وحاكم دمشق) أنه أولى بهذا الأمر من هؤلاء الصبية الصغار ، وخرج مطالبا بعرش السلاجقة إلى أن قتل ، فانتقل الصراع إلى دائرة الإخوة بين بركيارق وأنصار أخيه محمود الابن الأصغر الذى عهد إليه أبوه بالسلطنة والذى لم يمتد به العمر طويلا بعد وفاة أبيه ، إذ توفى إثر إصابته بالجدرى فتركز الصراع على السلطنة بين بركيارق وأخيه محمد ، هذا الصراع الذى إستمر حتى عام ٤٩٧ هـ /١١٠٣ حيث توصل الأخوان فى هذا العام إلى صلح ونوع من الاتفاق .

---

(٣٣) الكامل جـ ١٠ ص ١٥٠ ـــ ١٥١

(٣٤) التنظيم جـ ٩ ص ١٣٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٩١

كان لابد للقوى السياسية الصغيرة فى أنحاء الدولة السلجوقية أن تستغل هذا التفكك فى داخل البيت السلجوقى لتحقيق مكاسب سياسية إقليمية سواء فى ذلك أتابكة السلاجقة الذين كانوا يحكمون بعض الامارات — على امتداد الدولة — باسم أمراء السلاجقة الصغار ، أو أمراء العرب المتناثرون فى الشام والعراق ، ومنهم صدقة بن منصور الذى حدد موقفه — إثر وفاة ملكشاه — من هذه القوى المتصارعة ، فوقف بجانب بركيارق ، وخرج لاستقباله وهو فى الطريق إلى بغداد ، فدخلها معه فى ذى القعدة من عام ٤٨٦ هـ //١٠٩١ (٣٥) كما حاول صدقة أن يتصدى لتتش عندما خرج من بلاد الشام ثائرا على أبناء أخيه ، وأراد أن يفرض نفوذه على عاصمة الخلافة ، فعين له شحنة فى بغداد ، فخرج صدقة لمنعه من دخول بغداد ، ولما سمع الشحنة : يوسف بن أبق التركمانى بوصول صدقة ، خرج من بغداد ، ولم يعد إليها إلا بعد أن عاد صدقة إلى الحلة ، ولكنه فى النهاية اضطر إلى الرحيل عن بغداد عندما وصلته الأنباء بمقتل تتش (٣٦)

ويفسر ابن الأثير مسلك صدقة هذا بأنه يكره تتش ، وهذه الكراهية هى التى جعلته يعجل بالمسير إلى بغداد لإخراج شحنته منها . والواقع أن تتش كان يشكل خطرا كبيرا ليس على أبناء أخيه فحسب ، بل على كل الأمراء المغامرين الذين رأوا أن أحلامهم لن تتحقق فى ظل سلطان قوى يحفظ للدولة هيبتها ، وماعهد ملكشاه ببعيد ، فقد أخلد الأتابكة والأمراء فى عهده إلى السكون ، ولم يحاول واحد منهم أن يشق عصا طاعة ، أو يرفع راية عصيان وكان من المحتمل جدا أن يكون عهد تتش — فيما لو نجح فى مسعاه — إستمرارا لعهد القوة والتماسك الذى أظل دولة السلاجقة فى عهد ملكشاه .

وإستمر صدقة على ولائه لبركيارق حتى عام ٤٩٤ هـ /١١٠١ ففى هذا العام قطع خطبته من بلاده ، وخطب لأخيه ومنافسه محمد بن ملكشاه . وكان السبب فى هذا أن المكاسب التى حققها صدقة من وراء وقوفه فى صف بركيارق أوشك بعضها أن يتعرض للخطر عندما طالبه وزير بركيارق بمتأخرات مالية لخزينة الدولة تقدر بألف الف دينار ، ومن ثم رأى أن مصلحته تقتضى منه أن يميل إلى الجانب الآخر ، حفاظا على ماحقق من مكاسب ، وطمعا فى تحقيق مكاسب جديدة ، وقد وصل بركيارق فى هذا العام إلى بغداد

---

(٣٥) الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٦

(٣٦) المرجع السابق ص ٢٤٤

فى ذى القعدة ، وأرسل إلى صدقة يترضاه ، ويطلب منه الحضور إليه ، ولكنه لم يستجب لهذا الطلب ، واشترط لعودته الى الطاعة مرة أخرى أن يسلمه السلطان وزيره الذى أرسل يتهدده ، ويطالبه بالأموال ، ومن ثم انتهت مفاوضات الصلح بالفشل . ولم يقف صدقة عند هذا الحد ، وإنما أرسل جنده إلى الكوفة فطردوا نائب بركيارق بها ، وأضافها الى ممتلكاته (٣٧)

ولاشك أن هذا الموقف يشير إلى مدى ماحققه صدقة من مكاسب مستغلا فى ذلك هذا الجو المشحون بالصراع بين الإخوة أبناء ملكشاه ، فقد تغافل عن تسديد ماهو مقرر عليه لخزينة الدولة لسنوات كثيرة ، ولعله رأى أن ذلك أقل ثمن يمكن الحصول عليه فى مقابل وقوفه إلى جانب بركيارق ، كما يلاحظ استهانته بهؤلاء السلاطين الصغار إستهانة بالغة عندما أصر على أن يكون ثمن عودته إلى طاعة بركيارق أن يسلمه السلطان وزيره الذى تجرأ عليه ، وطالبه بما تأخر عليه من أموال (٣٨) كما أنه حاول أن يحقق مكاسب إقليمية جديدة ، متذرعا بخلافه مع بركيارق ، ومُدِلاً بولائه الجديد على السلطان محمد ، وماكان لصدقة أن يحقق شيئا مع ذلك كله لو إستمر البيت السلجوقى محافظا على قوته وتماسكه ، ولكن إستمرار الصراع بين أفراد هذا البيت ، وخاصة بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر قد أنهك قواهم ، وبدد مواردهم ، ووجدنا بركيارق يدخل بغداد فى أواخر عام ٤٩٤ هـ بعد أن تخلى عنه الكثير من أنصاره ، وعجزت الأموال التى بيده عن مواجهة متطلبات جيشه ، فارسل إلى إلى الخليفة يطلب منه العون المادى ، فقدم له خمسين ألف دينار ، فلم يكتف بذلك ، وإنما مد هو وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس حتى عم ضررهم ، وتمنى الجميع زوال الأمر عنهم .

ووسط هذه الظروف كان ساعد السلطان محمد يشتد ويقوى ، وانضم إليه أخوه سنجر فى صراعه ضد بركيارق ، فزحف بجيشه نحو بغداد ، فلما وصل إلى مشارفها خرج إليه بعض الأمراء معلنين ولاءهم مثل : إيلغازى بن أرتق ، وتراءى الجمعان يفصل بينهما نهر

(٣٧) المنتظم جـ ٩ ص ١٢٤ والكامل جـ ١٠ ص ٣٠٨

(٣٨) مما يدل على إستهانة صدقة بالسلاطين أن الذى توجه إليه يبلغه رسالة الوزير هو عميد العراق (أى المشرف على شئون العراق كله من قبل السلطان) فطرده صدقة شر طرده وكانت وسيلته فى ذلك أنه أمر أصحابه أن يقطعوا حبال الخيمة التى كان يجلس فيها العميد فوقعت عليه ، فخرج وركب فى الحال عائدا بعد أن تهدد صدقة وتوعده (المنتظم جـ ٩ ص ١٢٤)

دجلة ، وتراموا بالسباب والنبال ، واضطر بركيارق فى نهاية الأمر إلى الإنسحاب بجيشه من بغداد ، فدخلها محمد فى أواخر ذى الحجة ، فاستبشر الخليفة وعامة الناس بقدومه ، وخطب له فى بغداد وفى المحرم من عام ٤٩٥ هـ /١١٠١ خرج للقائه فى بغداد صدقة بن مزيد فاستقبل استقبالا حارا من قبل عامة الناس فى عاصمة الخلافة (٣٩)

وأمام هذا الصراع الدامى الذى لم يحسم بين الإخوة أبناء ملكشاه ، وتنقُّل صدقة بولائه بين الأطراف المتصارعة كان عليه أن يتوقع الخطر ، وخاصة من جانب بركيارق الذى تخلى عنه بعد أن استنفذ أغراضه منه ، ومن هنا كان لابد أن يحصن نفسه وقومه ضد أى إعتداء قد يوجه إليه ، ومن ثم شرع فى عام ٤٩٥ هـ فور عودته من بغداد فى بناء عاصمة جديدة حصينة تمنعه هو وقومه بعد أن كان يسكن هو وآباؤه من قبله فى البيوت المكشوفة (٤٠) ويوضح ياقوت السر فى إختيار المكان الذى عزم صدقة على أن ينشىء عاصمته فيه فيقول عن صدقة : كانت منازل آبائه الدور من « النيل » فلما قوى أمره ، وإشتد أزره ، وكثرت أمواله لاشتغال الملوك السلجوقية .. بما تواتر بينهم من الحروب انتقل إلى « الجامعين » (فى غربى الفرات) ليبعد عن الطالب ، وذلك فى محرم ٤٩٥ هـ وكانت أجمة (٤١) تأوى إليها السباع ، فنزل بها بأهله وعساكره ، وبنى بها المساكن الجليلة ، والدور الفاخرة ، وتأنق أصحابه فى مثل ذلك فصارت ملجأ (٤٢)

وبعد أن رتب السلطان محمد شئون بغداد ، وعين إيلغازى بن أرتق شحنة له فيها ، غادر العراق الى إيران ، وهناك تمت محاولات للتوفيق بينه وبين بركيارق انتهت بالفشل ، واستأنف الفريقان القتال ، وتبادلا النصر والهزيمة ، ووصل أحد أمراء السلطان محمد إلى بغداد منهزما فى سبعمائة رجل فأكرمه الخليفة ، واجتمع هو وإيلغازى بمشهد أبى حنيفة ، فتحالفوا على الإخلاص والنصح للسلطان محمد ، ثم توجهوا إلى صدقة فحلف لهم على ذلك أيضا (٤٣)

---

(٣٩) الكامل جـ ١٠ ص ٣٠٩ — ٣١٠

(٤٠) المرجع السابق ص ٣٥١

(٤١) الأجمة : الشجر الكثير الملتف ، وقد تعنى مأوى الأسد (المنجد فى اللغة والأدب والعلوم مادة أجَم)

(٤٢) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩٤

(٤٣) الكامل جـ ١٠ ص ٣٥٣

وقد مكنت بعض الإنتصارات التى حققها السلطان بركيارق على أخيه محمد فى عام ٤٩٥ هـ /١١٠١ من أن يحاول استعادة نفوذه فى عاصمة الخلافة فعين فى ربيع الأول من عام ٤٩٦ هـ /١١٠٢ كمشتكين القيصرى شحنة له فى بغداد ، فلما توجه اليها ، فارقها إيلغازى (شحنة السلطان محمد) وأرسل فى طلب النجدة من أخيه سقمان بن أرتق ومن سيف الدولة صدقة . وقد تمكن القيصرى من إعادة الخطبة لبركيارق فى بغداد ، وأرسل الى صدقة يطلب منه العودة الى طاعة سلطانه فلم يجبه الى ذلك . وبدأ صدقة فى الزحف من الحلة باتجاه بغداد ، وأمام اصراره على قطع الخطبة لبركيارق والخطبة للسلطان محمد اضطرت الخلافة الى أن تقطع الخطبة لكلا السلطانين ، واقتصر الخطباء على الدعاء للخليفة ، وانضم صدقة الى حليفيه : إيلغازى وسقمان ، وعسكروا قريباً من بغداد ، فنهبت عساكرهم النواحى ، وعاثوا وأفسدوا ، واعتدى بعضهم على الحرمات ، ونال الناس منهم ضرر كبير . فأرسل الخليفة قاضى القضاة الى صدقة « يأمره بالكف عن الأمر الذى هو ملابسه ، ويعرفه ماالناس فيه ، ويعظم عليه الأمر » فأظهر استعداده لطاعة الخليفة إن أخرج القيصرى من بغداد ، وإلا فليس غير السيف ، وأرعد وأبرق . فلم يكن هناك بد من إخراج القيصرى من بغداد ، واعيدت الخطبة للسلطان محمد (٤٤)

إن هذا التحرك من جانب صدقة لصالح السلطان محمد قد حقق له مزيداً من المكاسب الإقليمية فعندما خرج القيصرى من بغداد توجه الى واسط وخطب لبركيارق بها ، فطارده صدقة مع حليفه ايلغازى حتى استسلم لهما ، وبذلا له الأمان ، وأعادا خطبة السلطان محمد الى واسط ، وخطب لهما بعده ، واستناب كل واحد منهما فيها ولده (٤٥) ثم اتبع ذلك بالإستيلاء على مدينة « هِيت » وأناب فى حكمها ابن عمه (٤٦) وفى أوائل عام ٤٩٧ هـ /١١٠٣ تمكن من ضم مدينتى : « عانة » و » الحديثة » الى نفوذه (٤٧)

---

(٤٤) الكامل جـ ١٠ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ ، والمنتظم جـ ٩ ص ١٣٤ — ١٣٥

(٤٥) الكامل جـ ١٠ ص ٣٥٧ — ٣٥٨ . ويلاحظ أن صدقة قد انفرد بها فى عام ٤٩٧ هـ (الكامل جـ ١٠ ص ٣٧٧)

(٤٦) المرجع السابق ص ٣٥٨ — ٣٥٩

(٤٧) المرجع السابق ص ٣٦٨ . وعانة : بلد بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة وهى مشرفة على الفرات أما الحديثة فهى حديثة الفرات وغير حديثة الموصل وتعرف بحديثة النورة ، وهى على فراسخ من الأنبار (معجم البلدان جـ ٤ ص ٧٢ ، جـ ٢ ص ٢٣٠)

وعندما استقر أمر الصلح بين بركيارق ومحمد فى ربيع الآخر ٤٩٧ هـ /١١٠٤ وتقاسما النفوذ بينهما على أن تكون الخطبة فى بغداد لبركيارق ، حضر إيلغازى — شحنة بغداد من قبل السلطان محمد — إلى دار الخلافة ، وسأل فى إقامة الخطبة لبركيارق بناء على مااستقرت عليه قواعد الصلح ، فأجيب الى ذلك ، ولكن صدقة لم يكن راغبا فى اتمام هذا الصلح ، لأنه سيحد من طموحاته ، لذا أرسل الى الخليفة يخبره بعزمه على المسير لإخراج إيلغازى من بغداد « فقد أبدى صفحته للسلطان الذى استنابه ، وأنا غير صابر على ذلك » وبدأ صدقة بالزحف على بغداد ، فاستعد إيلغازى لمواجهته ، ولكنهما توصلا الى نوع من التفاهم بعد أن أوضح إيلغازى لصدقة سر مسلكه ؛ فقد أصبح إقطاعه فى جملة البلاد التى خضعت لنفوذ بركيارق بناء على قواعد الصلح ، ثم إن بغداد التى هو شحنة فيها قد صارت لبركيارق أيضا (٤٨) .

أصبحت بلاد صدقة بن دبيس بناء على قواعد الصلح المتقدم داخلة فى نطاق نفوذ السلطان محمد ، وعلى الرغم من أن صدقة لم يرحب بخطوة الصلح هذه ، شأنه شأن كثير من الأمراء الذين كانوا يؤثرون دوام الصراع بين السلاطين « ويختارونه ليدوم تحكمهم ، وانبساطهم ، وادلالهم » على الرغم من ذلك كله فإنه حاول أن يحقق من وراء هذا الصلح أقصى مايمكن تحقيقه من توسيع لمناطق نفوذه ، خاصة وأن تطورات الأحداث بدت فى صالحه ، ذلك أن السلطان بركيارق قد توفى بعد اقرار الصلح بعام واحد فى ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ /١١٠٥ وظهرت نذر الخلاف من جديد فى داخل البيت السلجوقى بين أنصار ملكشاه بن بركيارق ، والسلطان محمد ، وهنا وقف صدقة مؤيدا للسلطان محمد ، وأرسل له ولديه يستحثانه على المجىء الى بغداد ، وقام بإعداد جيش قوامه خمسة وعشرون ألف جندى زحف به على بغداد ، وكان السلطان قد سبقه ، وعسكر بالجانب الغربى منها ، فنزل عليه صدقة ، فأكره السلطان ، وقربه ، وهنا اضطر أنصار ملكشاه بن بركيارق فى بغداد الى الخضوع والإذعان ، والدخول فى طاعة السلطان محمد (٤٩) وقد أقطع السلطان مدينة الكوفة للأمير « قايماز » وأوصى صدقة أن يحميه وأصحابه من العرب المغيرين ، كما أقطع صدقة مدينة البصرة فأرسل إليها من ينوب عنه فى حكمها ، ثم أضاف صدقة الى ممتلكاته فى عام ٥٠٠ هـ /١١٠٦ مدينة « تكريت » على الرغم من أن السلطان محمد

---

(٤٨) الكامل جـ ١٠ ص ٣٧٠ — ٣٧٤

(٤٩) المرجع السابق ص ٣٨٥ — ٣٨٧

كان قد أقطعها لأقسنقر البرسقى (شحنة بغداد) ولكن صاحبها رفض أن يسلمها إليه ، وإستدعى صدقة ليتنازل له عنها ، فسار إليها ، وتسلمها منه ، ورحل البرسقى عنها (٥٠) وفى هذا مايؤكد أن صدقة على الرغم من وقوفه بجانب السلطان محمد إلا أنه كان فيه إستهانة بأوامر السلاطين ، وإدلال عليهم ، وهذا الأمر سيؤدى فى النهاية إلى فساد العلاقات بين السلطان وصدقة على الرغم من أنا وجدنا هذه العلاقات تتطور لصالح صدقة منذ وفاة بركيارق فى أوائل عام ٤٤٨ حتى سنة ٥٠٠ هـ

ولكن مع بدايات القرن السادس كانت الأمور قد إستقرت تماما للسلطان محمد بعد وفاة أخيه والقضاء على أنصار ابن أخيه . وبدا واضحا أن مرحلة جديدة ستبدأ فى سياسة السلطان تجاه الخصوم أو الأعوان الذين يدلون بخدماتهم ، فأخذ يصفى حساباته القديمة مع بعض الأمراء الذين وقفوا بإصرار إلى جانب أخيه فى الصراع الذى دار بينهما ، ومن هؤلاء أحد كبار القواد العسكريين ، ويدعى : سُرخاب الديلمى ، وكان أميرا على « ساوة وآبة » ★ و كان هذا الأمير فى صف السلطان محمد أولا ، ثم تخلى عنه ، وإنضم إلى بركيارق فى عام ٤٩٤ هـ /١١٠١ وأصبح من أبرز قواده ، حتى أنه كان السبب الرئيسى فى الهزيمة العسكرية الفادحة التى لحقت بجيش محمد فى عام ٤٩٥ هـ /١١٠٢ عند مدينة الرَّى ، ونهبت على إثرها خزائن السلطان محمد ، وأخذت أموال أصحابه (٥١) ولما تخفف السلطان من أعبائه ومشكلاته ، وحان وقت الحساب ، كان سرخاب من بين من غضب عليهم السلطان ، ففر من أمامه إلى حلة بنى مزيد مستجيرا بصدقة ، فأجاره ، وإمتنع من تسليمه إلى السلطان ، ولم تكن هذه أول مرة يلجأ فيها صدقة الى حماية من يستجير به ، فصدقة ، رجل بدوى من العرب الذين تشكل حماية المستجير جزءا من تراثهم الحضارى الذى يعتزون به ، ويعيرون به من العرب إن تخلوا عنه ، ولذا كان يبسط حمايته على كل من يلجأ إليه خائفا من خليفة أو سلطان ، وإنطلاقا من ذلك فقد رفض طلب السلطان محمد بأن يسلم إليه سرخاب قائلا : إننى لا أمكن منه ، بل أحامى عنه وأقول ماقاله أبر طالب لقريش لما طلبوا منه الرسول الكريم :

---

(٥٠) المرجع السابق ص ٤١١ ، ٤٢٠ والمختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٢١

★ آبه : بليدة تقابل ساوة ، وتعرف بين العامة بآوة ، أهلها شيعة ، وأهل سادة سنة ، وهما فى الوسط بين الرى وهمدان (معجم البلدان جـ ١ ص ٥٠ ، جـ ٣ ص ١٧٩)

(٥١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٠٣ ، ٣٣٢

ونسلمه حتى نصرَّع حوله ونذهلُ عن أبنائنا والحلائل (٥٢)

وقد إستغل الحاقدون على صدقة فى بلاط السلطان محمد هذا الموقف ، واثاروا فى نفسه ماكان كامنا من السخط عليه ، ومنهم عميد العراق أبو جعفر محمد بن الحسين البلخى الذى قال للسلطان : « إن صدقة قد عظم أمره ، وزاد حاله ، وكثر إدلاله ، ويبسط فى الدولة حمايته على كل من يفر إليه من عند السلطان ، وهذا لاتحتمله الملوك لأولادهم ، ولو أرسلت بعض أصحابك لملك بلاده وأمواله (٥٣) » ولم يتوقف عميد العراق عند هذا الحد ، بل طعن فى عقيدة صدقة ، ونسبه وأهله إلى فرقة « الباطنية » (إتباع الحسن بن الصباح) مستغلا تشيع صدقة للبيت العلوى .

وكان إتهام أى شخص — فى ذلك الوقت — بالانتساب الى الباطنية يعد أمراً خطيراً فى وقت إزداد فيه نفوذ هذه الطائفة ، وكثر عبثها وفسادها ، وإغتيالاتها السياسية فى بلاد إيران ، وإمتد نفوذها إلى مواقع كثيرة : فى الجيش ، وبلاط السلاطين ، ودواوين الدولة المختلفة ، وأخذ السلطان محمد يوجه جهودا مكثفة للقضاء على نفوذهم ، وإسقاط قلاعهم التى تحصنوا بها وبخاصة قلعة « شاه دژ » فى أصفهان التى استولى عليها فى ذى القعدة سنة ٥٠٠ هـ /١١٠٦

لم يكن صدقة باطنيا كما ادعى عميد العراق ، وإنما كان مذهبه التشيع لاغير كما يقول ابن الأثير «(٥٤) ولكن يبدو أن العميد قد إستغل فى ذلك الوقت حادثة استيلاء صدقة على مدينة تكريت التى أقطعها السلطان للبرسقى ، ورفض صاحبها أن يسلمها له ، وتنازل عنها لصدقة . وكان هذا الأمير ويدعى : كيقباذ بن هزارسب الديلمى باطنيا (٥٤) وقد هيأ ذلك الفرصة أمام عميد العراق كى يوغر صدر السلطان عليه من جهتين: من جهة أن كيقباذ لم يعبأ بتنفيذ رغبة السلطان بإقطاع هذه المدينة للبرسقى ، وقاوم هذه الرغبة ، ومع ذلك استدعى صدقة وسلمها إليه ، ولن يحدث هذا الأمر إلا إذا كانت هناك علاقات

---

(٥٢) الكامل جـ ١٠ ص ٤٤١

(٥٣) المرجع السابق ص ٤٤٠

(٥٤) المرجع السابق ص ٤٤٠

(٥٥) يقول ابن الأثير : مات كيقباذ بعد نزوله من قلعة تكريت بثمانية أيام ، وكان ينسب الى الباطنية ، وكان موته من سعادة صدقة ، فإنه لو أقام عنده لعرضه لظنون الناس فى إعتقاده ومذهبه (الكامل جـ ١٠ ص ٤٢٠)

خاصة ، وعواطف مشتركة تجمع بينهما ، ومادام الاثنان يتشيعان وأحدهما باطنى فليس هناك مايحول دون أن يكون صدقة باطنيا أيضا ، والجهة الثانية : أن صدقة وهو حليف — فى الظاهر — للسلطان تحدى رغبته ، وحال دون تنفيذها بالاستيلاء على تكريت ، وضمها إلى مناطق نفوذه غير عابىء بأوامر السلطان ، فلم يكن هناك بد من مسير السلطان إلى العراق لتأديب صدقة وكان ذلك فى عام ٥٠١ هـ /١١٠٧ أى بعد أن كسر السلطان محمد شوكة الباطنية فى عاصمة ملكه « أصفهان » وإستولى على قلعة هامة من قلاعهم كانت بمثابة الشوكة فى الظهر ، وهى قلعة « شاه دز » التى كان يتزعم الباطنية فيها عبد الملك بن عطاش . أى أن السلطان محمد توجه إلى العراق مدعما بانتصاراته الجديدة التى حققها ، وبتفرده بالنفوذ والسلطان فى دولة السلاجقة بعد أن إستقرت له الأمور ، وهدأت الأحوال .

وعندما علم صدقة بأنه المستهدف من زحف السلطان محمد على العراق إستشار من حوله ، فأشار عليه ابنه دبيس بأن يعمل على إزالة الأحقاد التى زرعها خصومه تجاهه فى قلب السلطان ، وأن يرسل إليه بالهدايا ليستعطفه ، ولكن قائد جيشه : سعيد بن حميد كان له رأى آخر ، وهو الاستعداد للمواجهة العسكرية . وقد تغلب هذا الرأى الأخير ، وإستطاع صدقة أن يجمع حوله خمسين ألف مقاتل وفى هذا دلالة على مقدار ماوصل إليه فى هذه الفترة من سطوة وقوة . ولكن الخليفة العباسى : المستظهر بالله كان يدرك الأخطار الدامية التى ستترتب على هذه المواجهة بين السلطان وصدقة ، ذلك أنها قد تغرق العراق كله فى بحر من الدماء ، ولذا أرسل إلى صدقة يحذره مغبة الخروج عن طاعة السلطان ، ويعرض عليه الوساطة فى الصلح بينهما ، فأبدى صدقة رغبة فى الصلح شريطة ألا يلتقى بالسلطان ، لأنه لايأمنه على نفسه . وقد قابل السلطان هذه المشاعر الطيبة من قبل صدقة بمشاعر طيبة أيضا فى رسالة حملها إليه قاضى القضاة : أبو سعيد الهروى أخبره فيها أنه ينوى القيام بجهاد الفرنج ، ويطلب من صدقة أن يستعد للغزاة معه ، ولكن صدقة كان يشك فى صدق نوايا السلطان تجاهه ، ومن ثم لم يقابل هذه الرسالة بالإيجاب ، بل رأينا قائد جيشه يرد على قاضى القضاة بقوله : « لم يبق لنا فى صلح السلطان مطمع ، ولترون خيولنا بحلوان » (٥٦) أى أنه لن يكتفى بمقاومة السلطان ، بل سيواصل الزحف للاستيلاء

---

(٥٦) الكامل جـ ١٠ ص ٤٤٢

على ممتلكاته وهذه اللهجة المتعجرفة من قبل قائد جيش صدقة لم يكن مصدرها الركون إلى جيش قوى كبير العدد فقط ، بل إستندت هذه اللهجة أيضا إلى موقف بعض أمراء السلاجقة الذين تعودوا الحصول على المزيد من المكاسب أثناء انشغال السلاطين بصراعهم مع بعض القوى السياسية المختلفة ، فكاتب بعضهم صدقة يشجعونه على الوقوف فى وجه السلطان ، ويعدونه بالعون والنصرة ، ومنهم : إيلغازى بن أرتق وجاولى (أمير الموصل) فقد أظهر له الأخير انه معه على حرب السلطان ، وذلك أن جاولى لما عينه السلطان أميرا على الموصل إستولى على كثير من البلاد والأموال ولم يقدم للسلطان من هذا المال شيئا ، وعندما وصل السلطان إلى العراق لتأديب صدقة استدعاه بعساكره فلم يحضر ، وإدعى أنه يخاف أن يجتمع بالسلطان (٥٧) وقد خدع صدقة بالرسائل التى وردت إليه من جالى وغيره ، فبعد أن أمكن الوصول إلى صلح بين الطرفين عندما توسط الخليفة فى الأمر أرسل صدقة إلى الخليفة يشترط لإتمام هذا الصلح أن يرحل السلطان أولا عن بغداد « أما الآن وهو ببغداد .. فماله عندى مال ولاغيره ، وإن جاولى سقاوو ، وإيلغازى بن أرتق قد أرسلا إلىّ بالطاعة والموافقة ومتى أردتهما وصلا إلىّ فى عساكرهما » (٥٨)

لم يكن جاولى أو غيره من أمراء السلاجقة صادقين عندما كاتبوا صدقه يطلبون منه الاستمرار فى العصيان ، مؤكدين له الوقوف إلى جانبه فى هذا الصراع وإنما كان هدفهم الأساسى أن يفتحوا على السلطان محمد جبهة جديدة تستنزف وقته وجهده وماله ، حتى يحققوا لأنفسهم الأمن من جانبه ، وهذا ماحدث بالفعل عندما إنهارات المفاوضات ، والتقى الجمعان فى التاسع عشر من رجب سنة ٥٠١ / ١١٠٨ فقتل صدقة فى المعركة ، وحملت رأسه إلى السلطان ، وأسر ابنه دبيس ، وهرب إبنه الآخر « بدران » بالحرم والنساء إلى البطيحة ، ولم يتحرك لنصرة صدقة واحد من الأمراء الذين كاتبوه (٥٩)

لم يحاول السلطان محمد الوصول إلى الحلة للقضاء نهائيا على نفوذ آل مزيد ، لأن ذلك كان سيفتح عليه جبهة جديدة من الصراع قد تستنفذ الكثير من وقته وجهده ، مع أنه كان فى أمس الحاجة لتركيز جهوده العسكرية لمواجهة قلاع الباطنية المتناثرة فى إيران تهدد سلطانه ، كما تهدد أمن رعيته ، وفى مقدمتها قلعة « ألموت » التى كان يتزعمها : الحسن بن الصباح ولم

(٥٧) الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٧

(٥٨) المرجع السابق ص ٤٤٣

(٥٩) المرجع السابق ص ٤٤٣ — ٤٤٨

يكن من السهل — فى هذه الظروف — إخضاع القبائل العربية من بنى أسد لنفوذه المباشر وقد إرتبطت عاطفيا ووجدانيا بآل مزيد ، وبخاصة « صدقة » الذى وصفه ابن الاثير بأنه كان جوادا حليما صدوقا كثير البر والإحسان ، ملجأ لكل ملهوف ، عادلا ، والرعايا معه فى أمن ودعة ، لم يصادر أحداً من نوابه ، ولاآخذهم بإساءة قديمة « وكان أصحابه يودعون أموالهم فى خزائنه ، ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد ، ولم يسمع برعية أحبت أميرها ، كحب رعيته له ، وكان متواضعا محتملا .. لقد كان من محاسن الدنيا » (٦٠) وليس أدل على مكانته تلك فى قومه من أنه إستطاع أن يجمع لمواجهة السلطان محمد خميس ألف مقاتل ، منهم عشرون ألف فارس ، مع ماتميزت به إمارته من صغر المساحة ، وقلة الموارد ، لذا رأى السلطان أن من حسن السياسة — بعد مقتل صدقة — أن يعمل على تهدئة الخواطر ، ومؤاساة الجراح ، حتى يركن الجميع إلى الهدوء والسكينة ، فأرسل أمانا لزوج صدقة التى فرت هى وابنها إلى البطيحة ، وأمرها بالظهور ، فوصلت إليه فى بغداد ، فأحسن إستقبالها ، واعتذر لها عن قتل زوجها قائلا : وددت لو أنه حمل إلىّ ، حتى أفعل به مايعجب الناس من الجميل والإحسان ، لكن الأقدار غلبتنى (٦١) ثم أطلق لها إبنها دبيسا ، وأقره على ماكان بيد أبيه شريطة ألا يسعى بفساد ، وأن يقيم فى بلاط السلطان إلى تسنح الظروف بإعادته إلى إمارته (٦١)

وقد سكتت كتب التاريخ العام عن الإشارة إلى الوسيلة التى أديرت بها إمارة بنى مزيد بعد مقتل صدقة فى عام ٥٠١ هـ /١١٠٨ وحتى عام ٥١٢ هـ /١١١٨ وهى السنة التى عاد فيها دبيس (الثانى) إلى إمارته بعد وفاة السلطان محمد ، كيف كانت تدار هذه البلاد عندما كان دبيس مقيما ببلاط السلطان محمد أميرا بلا إمارة ؟ لم نجد مايلقى الضوء على هذه الفترة سوى ماخلفه شعراء منطقة « الحِلة » وراءهم من شعر ، فقد آلمهم أن تمنح بلادهم — من قبل السلطان — كإقطاعات لأمراء من الأكراد والترك ، فرثوا لحال بلادهم ، ووازنوا بين ماضيها المشرق فى عهد بنى مزيد ، وحاضرها الأليم فى عهد هؤلاء الأعاجم . يقول العماد الأصفهانى : لما قتل سيف الدوله صدقة ، وأُقطع بلادُه الأكراد

---

(٦٠) الكامل جـ ١٠ ص ٤٤٨ — ٤٤٩

(٦١) المرجع السابق ص ٤٤٩

(٦٢) ظل دبيس مقيما فى بلاط السلطان محمد حتى وفاته سنة ٥١١ ، ثم استأذن ابنه السلطان محمود فى أن يسمح له بالعودة إلى الحلة ، فعاد إليها سنة ٥١٢ هـ (الكامل جـ ١٠ ص ٥٣٣)

وغيرهم ، وضمن كشف تلك الاعمال رجل يقال له ثابت بن سلطان ، ومن الأكراد جماعة يقال لهم « البشيرية » ، وجماعة يقال لهم « نرجسية » أنشأ الصارم مُرَجّى البطائمى قصيدة منها :

لقد سنّ للسلطان ثابتُ سنة ... فلا يأمن السلطان زيد ولاعمرو
وقد كثر الإقطاع حتى أظنه ... سيُقطع كلب بالجزيرة أو هر
ثلاثون ألفا للبشيرى وحده ... فدع عنك ممن لايجوز لهم ذكر
وعشرون ألفا أُقطعت نرجسية ... كثيرها ألف ولو أنها بعر
سلام على مال العراق فإنه ... مضى حيث لانفع لذاك ولاضر
فشطر لأتراك ومن دونها النهر ... وشطر لأكراد ومن شأنها الغدر
وشطر لكتاب ومافيهم صدر ... وشطر لحجاب ومابهم فخر (٦٣)

عاد دبيس (الثانى) إلى الحلة يحمل فى صدره أحقادا دفينة ، تعددت مصادرها فقد شاهد أباه يذبح ذبح الشاه على يد جند السلاجقة ، ثم يطاف برأسه فى شوارع بغداد . وهدم بيت أبيه فى عاصمة الخلافة ، وأدخل فى جامع القصر ، وقد كان هذا البيت ملجأ لكل ملهوف ، وأمنا لكل طريد ، ثم تجرع مرارة عشر سنوات من النفى قضاها فى قصر السلطان بعيدا عن موطن الآباء والأجداد ، فلم يكن من المتوقع إذن أن يخلد دبيس إلى الهدوء والسكينة بعد كل هذا ، خاصة أن الظروف السياسية فى دولة الخلافة قد تغيرت عما كانت عليه فى أواخر أيام السلطان محمد الذى إستطاع أن يستعيد للسلطنة هيبتها ، وللدولة قوتها ، ويتفرغ لمقاومة الأخطار الداخلية التى كانت تحدق بدولته من الشرق والغرب ، ممثلة فى قلاع الباطنية التى انتشرت فى إيران ، وفى الكيانات الصليبية التى تناثرت فى العراق وبلاد الشام .

كانت وفاة السلطان محمد تعنى بداية مرحلة جديدة من الصراع فى داخل البيت السلجوقى حول منصب السلطان بين « سنجر » وابن اخيه محمود بن محمد ، ثم بين الإخوة محمود ومسعود وطغرل أبناء السلطان محمد . الأمر الذى سيشجع المغامرين ، وذوى الطموح على أن يدلوا بدلوهم فى هذا الصراع . أملا فى أن يحققوا لأنفسهم أكبر قدر من

---

(٦٣) خريدة القصر وجريدة العصر جـ ٤ مجلد ٢ ص ٥٣٤ — ٥٣٥

المكاسب الإقليمية . وكان فى مقدمة هؤلاء المغامرين دبيس بن صدقة الذى انتهز فرصة هزيمة السلطان محمود أمام عمه سنجر فى عام ٥١٣ هـ /١١١٨ ليقف إلى جانب الأقوى .. جانب السلطان سنجر ، فأرسل إلى الخليفة المسترشد بالله يحثه على إقامة الخطبة لسنجر فى عاصمة الخلافة ، فخطب له ، وقطعت الخطبة للسلطان محمود (٦٤)

وبعد أن هدأت الأمور بين سنجر وابن أخيه محمود اندلع الصراع فى العام التالى بين الأخوين : محمود ومسعود ابنى محمد . ولما لم يكن دبيس قادرا على أن يقف بجانب الأقوى منهما وهو السلطان محمود بسبب مناصرته لعمه سنجر فى العام السابق فقد وقف بجانب مسعود ، لكن هذا الأخير هزم فى المعركة ، وجنح الأخوان للصلح ، ولم يكن دبيس راغبا فيه ، لأنه سيفوت عليه فرصة الاستفادة من هذا الصراع ، فلجأ إلى النهب والتخريب فى بعض بلاد العراق ، وارتكب أفعالا قبيحة وحاول السلطان محمود أن يستميله إلى جانبه ، فأرسل إليه من يطيب خاطره فلم يلتفت إليه (٦٥) وأمام تكرار غارات النهب والسلب بسواد بغداد من جانب دبيس ورجاله وعدم إستجابته لنداء الخليفة بكف أصحابه عن العبث ، أرسل الخليفة فى طلب السلطان محمود ، فسار دبيس إلى بغداد ، وعسكر بإزاء قصر الخلافة ، وتهدد الخليفة بالاستمرار فى الإفساد إن لم يطلب من السلطان البقاء حيث هو ، فأخبره الخليفة بأن هذا غير ممكن بعد أن خرج السلطان من همدان ، وأصبح فى الطريق إلى بغداد . ولكن الخليفة وعده بأن يسعى فى الصلح بينهما فرحل عنه . وعندما وصل السلطان إلى بغداد أرسل إليه دبيس زوجته محملة بالهدايا ، وسألته الصفح عن زوجها ، فأجابها إلى ذلك بشروط لم يقبلها دبيس ، وعاد إلى سيرته الأولى من العبث والفساد فتحرك السلطان لتأديبه ، فأبدى دبيس رغبته فى قبول الصلح ، ولكنه لم يكن جادا فى ذلك ، بل كان يهدف إلى المطاولة حتى يدبر أمره ، فأرسل نساءه إلى البطيحة ، وحمل أمواله ، ورحل عن الحلة ملتجئا إلى صهره إيلغازى بن أرتق فى شمالى العراق ، ووصل

---

(٦٤) سمح سنجر بعد ذلك بأن يخطب للسلطان محمود من بعده ، وأعاد إليه جميع البلاد التى أخذها منه عدا « الرى » حيث آثر أن تظل تابعة له ، لتكون قاعدة قريبة ينطلق منها إذا حدث السلطان محمود نفسه بالخروج مرة أخرى عليه
الكامل جـ ١٠ ص ٥٥٢ — ٥٥٣)

(٦٥) الكامل جـ ١٠ ص ٥٦٤ — ٥٦٥

السلطان إلى « الحِلة » فلم يجد بها أحدا (٦٦)

بقى دبيس بعيدا عن حلته يبذل محاولات للصلح مع السلطان أثناء إقامته فى شمالىّ العراق ، وقد وسط صهره ومجيره : إيلغازى بن أرتق فى إتمام هذا الصلح الذى تعثر الوصول إليه عدة مرات ، وهنا غامر دبيس وعاد إلى الحلة مرة أخرى ، ثم أرسل يعتذر للخليفة والسلطان عما بدر منه ، ويعدهما بالطاعة ، فلم يجد إستجابة منهما ، وخرجت حملة لتأديبه فرحل عن الحلة ، ولكن الحملة قطعت عليه الطريق ، فلم يكن أمامه إلا أن يتعهد لقائدها : « يرنقش الزكوى » بلزوم الطاعة ، وأن يسلم ابنه وأخاه ليكونا رهينتين عند السلطان تضمنان له إستمرار دبيس فى الخضوع ، ولزوم الطاعة (٦٧) لكن الخليفة المسترشد لم يرض عن هذا الصلح ، وطالب السلطان بإبعاد دبيس عن العراق ، لأنه يلاحق الناس بأحقاده الدفينة ، وفى مقدمتها مقتل أبيه . وأشار الخليفة على السلطان أن يعين « آقسنقر البرسقى » (أمير الموصل) شحنة لبغداد ، ويجعله فى مواجهة دبيس . وقد امتثل السلطان لأوامر الخليفة . وبمجرد رحيل السلطان عن بغداد فى أوائل عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ عاد دبيس إلى سيرته الأولى من النهب والفساد فتصدى البرسقى له ، وتبادل الفريقان ، النصر والهزيمة ، ولم يصل أحدهما إلى موقف حاسم مع الآخر . ولما علم السلطان بأنباء هذه المعارك ، قبض على أخى دبيس وابنه ، وسجنهما فى إحدى القلاع ، واشيع أن السلطان قد كحل أخاه ، فلبس دبيس السواد ، وجز شعره ، ونهب البلاد ، واستولى على ممتلكات الخليفة القريبة من الكوفة . وأرسل إلى الخليفة يقسم له أنه لابد أن ينهب بغداد ويخربها بسبب امداد الخليفة للبرسقى بالمال ، وبسبب ماأصاب أخاه فى بلاط السلطان ، فأمر الخليفة البرسقى بالاستعداد لملاقاة دبيس ، وأخذ هو الآخر فى إعداد حملة عسكرية يشارك بها فى القضاء عليه ، وخرج البرسقى فى رمضان ، ولحق به الخليفة فى ذى الحجة من عام ٥١٦ هـ /١١٢٣ بعد أن إنضم إليه خلق كثير فرق فيهم الأموال والسلاح . ولما وجد دبيس أنِ الأمر جد خطر ، وأن الأهوال تحدق به أرسل يستعطف الخليفة فلم يلتفت إليه ، والتقى الفريقان فى المحرم من عام ٥١٧ هـ /١١٢٣ فى بلاد دبيس ، وقرب عاصمته ، فهزم دبيس ، وفر معظم رجاله بعد أن قتل منهم الكثير ، ووقع

---

(٦٧) الكامل جـ ١٠ ص ٥٦٥

(٦٨) المرجع السابق ص ٥٦٦

معظم نسائه فى الأسر . أما هو فقد نجا بنفسه ، وإلتجأ إلى بعض القبائل العربية فى نجد طالبا منهم العون ضد الخليفة والسلطان . فلجأ إلى بعض العربان فى البادية ، وضمهم إليه ، وهاجم بهم البصرة ، وعاث فيها فسادا ، ثم رحل عنها لاجئاً إلى القوى الصليبية فى الشام ليلعب معهم دوراً من أخطر الأدوار فى حياته السياسية (٦٨) .

ارتكب دبيس — بمواجهته الخليفة — خطأ جسيماً — لأن الخليفة مهما غلب على أمره من قبل الترك ، وتجبروا عليه وتسلطوا ، فإن للقبائل العربية تجاهه موقفا آخر ، ذلك أنهم يرونه رمزاً لكيانهم وسلطانهم فى مواجهة الترك المستبدين بأمورهم . وقد كان جيش دبيس — فى معظمه — مكوناً من القبائل العربية ، ولم يستطع دبيس أن يستوعب الفرق بين أن يواجه جيوش السلاطين بهذه القبائل ، وأن يواجه بها الخليفة العباسى . الأمر الذى ترتب عليه فرار رجال القبائل من حوله ، ثم هزيمته وفراره الى الشام رغم تفوق جيشه على جيش الخليفة عتاداً وعدداً (٦٩) .

واذا كانت مواجهة دبيس للخليفة تمثل خطأ فادحاً فإن ماترتب على هزيمته من آثار ونتائج قد أوقعته فى أخطاء أشد فداحة عندما ارتمى فى أحضان الصليبيين ، وشجعهم على المضى معه لحصار حلب ، ظناً منه أن مذهبه الشيعى الذى يشاركه فيه غالبية سكان حلب سيدفعهم إلى نصرته ، والوقوف بجانبه ، الأمر الذى سيمكنه من الإستيلاء عليها ، وحكمها باسم الصليبيين .

كانت حلب فى ذلك الوقت يحكمها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق بعد مقتل أميرها السابق : بلْك بن بهرام بن أرتق فى عام ٥١٨ هـ /١١٢٤ وبذلك أصبح تمرتاش صاحب التصرف المطلق فى أمر ملك بيت المقدس : بلدوين الثانى الذى كان أسيرا لدى بلك بن بهرام . ودارت مفاوضات غير مباشرة بين تمرتاش والصليبيين لإطلاق سراح مليكهم قام بها أمير « شيزر » : سلطان بن منقذ . وقد وافق تمرتاش على الإفراج عنه بشروط منها : أن يقف الملك بجانبه ضد دبيس بن صدقة (٧٠) ومن هذا الشرط يتضح أن

---

(٦٨) الكامل جـ ١٠ ص ٦٠٧ — ٦١٠

(٦٩) كان جيش الخلافة حوالى ثلاثة عشر ألفا ، منهم خمسة آلاف فارس ، وجيش دبيس حوالى ثنتين وعشرين ألفا ، منهم عشرة آلاف فارس . (الكامل جـ ١٠ ص ٦٠٩)

(٧٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٧٣ ، والاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٢٠

دبيساً ربما كانت له أطماع فى منطقة الجزيرة الفراتية بعد وفاه صهره إيلغازى بن أرتق (٧١) والد تمرتاش ، كما أنه ليس من المستبعد أن يكون تمرتاش قد أراد أن يحصن نفسه ضد هذا الحلف المرتقب بين دبيس والصليبيين . لكن بلدوين بعد أن أطلق سراحه لم يوف بوعده لتمرتاش ، ورأيناه يستقبل سفارة من قبل دبيس ، ويتم الإتفاق بينهما على الإعداد للقيام بهجوم مشترك على حلب ، وانحازت الجيوش الصليبية الى عربان دبيس ، وازداد هذا الحلف قوة بانضمام « سلطان شاه » بن رضوان بن تتش — المطالب بعرش حلب — اليه (٧٢)

وصمدت حلب للحصار ثلاثة أشهر ، ولم يتقدم جمهور الشيعة فى حلب بمديد العون والمساعدة لدبيس وحلفائه كما توقع هو ، بل رأينا أهل المدينة يستنجدون بغريمة السنى : آتسنقر البرسقى الذى عاد فى عام ٥١٨ هـ إلى امارة الموصل ، ويسلمون لنوابه قلعة مدينتهم ، فتحرك لفك الحصار عنهم ، وعندما أشرف بجنده على المدينة رحل الحلفاء عنها ، وخرج أهل حلب : سنيهم وشيعيهم لاستقباله ، فأقام بالمدينة حتى أصلح أمورها ، ورتب أوضاعها ، ثم عاد الى الموصل (٧٣) .

وأمام فشل المحاولات التى قام بها دبيس لاستعادة نفوذه فى العراق ، أو العثور على نقطة ارتكاز جديدة فى شمالىّ العراق أو شمالى الشام ينطلق منها لتحقيق طموحاته وأحلامه . أمام هذا الفشل لم يكن يملك غير أن يرنو ببصره نحو الشرق فى محاولة جديدة للوقيعة بين سلاطين السلاجقة عله يستغل ماسينشب بينهم من صراع وتنافس لتحقيق أهدافه الخاصة ، وفى مقدمتها استعادة ملك الآباء والأجداد فى وسط العراق ، فتوجه إلى الملك : طغرل بن محمد ، وشجعه على الخروج على أخيه محمود ، والسير معه للإستيلاء على العراق . وعندما علم الخليفة المسترشد باتجاههما نحو بغداد ، خرج للقائهما ومعه شحنة السلطان .

وقد وقع دبس بعد تطورات عدة فى يد الخليفة ، فعفا عنه بعد أن أظهر له الندم ، والعزم على الخضوع والطاعة ، إلا أنه لم يكن جاداً فى الأمر ، ومن ثم لحق بالملك « طغول »

---

(٧١) توفى فى رمضان سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢

(٧٢) تاريخ الحوب الصليبية جـ٢ ص ٢٧٥ . وكذلك

Gibb : zingi and the fall of Edessa . p. 453.

(٧٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٢ والكامل جـ ١٠ ص ٦٢٣ — ٦٣٤ ، ومرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ١١٣ — ١١٤

الذى أقعده المرض فى الطريق عن الإشتراك معه فى مواجهة قوات الخلافة ، واتفقا على المسير الى السلطان « سنجر » لتأليبه على السلطان محمود ، وقد عرجا فى طريقهما على همذان ، ففرضا على الناس الإتاوات ، وخرج السلطان محمود لقتالهما ، ففرا من أمامه (٧٤)

استطاع دبيس وطغرل أن يوغرا صدر « سنجر » على ابن أخيه محمود وعلى الخليفة المسترشد ، وسهلا أمامه الوصول إلى العراق للإستيلاء عليه ، فسار معهما ، ولكنه عندما وصل إلى الرى أرسل فى استدعاء السلطان محمود ، ليتأكد إن كان مايزال على الطاعة ، أم أنه يعد العدة للخروج عليه كما أخبره بذلك طغرل ودبيس . وقد لبى محمود دعوة عمه مسرعاً فسار إليه من همدان ، فأدرك أنه مايزال على الطاعة ، ومن ثم استقبله استقبالا حسناً ، وبالغ فى إكرامه . ومن العجيب أن نرى سنجر يسلم دبيساً للسلطان محمود ، ويوصيه به خيراً ، وأن يعمل على إعادته إلى مقر ملكه فى وسط العراق ، فعاد محمود ومعه دبيس إلى همذان ، ومنها إلى العراق ، فوصلا بغداد فى المحرم من عام ٥٢٣ هـ /١١٢٩ (٧٤)

ووجه العجب أنا كنا نتوقع من سنجر أن يعاقب دبيساً على افتراءاته أو على الأقل يطرده من بلاطه ، ولايوصى به خيراً بعد أن سعى فى الفتنة والوقيعة بينه وبين ابن أخيه . ولكن سنجر الذى تأكد من إخلاص ابن أخيه عندما أسرع للقائه ، لم يتأكد بعد من إخلاص الخليفة « المسترشد » فقد أشاع دبيس وهو فى بلاط سنجر أن كلا من السلطان محمود والخليفة قد تحالفا ، وعقدا العزم على الامتناع عليه ، وهو يعلم أن دبيسا شجى فى حلق الخليفة ، فأراد أن يعلم مدى استعداد المسترشد لتنفيذ توجيهاته . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن وجود دبيس فى العراق سيستنفذ الكثير من جهد الخلافة وقوتها ، فى وقت كانت الخلافة فيه تمر بفترة صحوة مؤقتة فى عهد المسترشد ، وأصبحت تشكل خطراً على نفوذ السلاجقة فى منطقة العراق .

وبالفعل عندما عرض السلطان محمود ــ بعد وصوله الى العراق ــ على الخليفة أن يعفو عن دبيس ويصفح ، ويسمح له بالعودة إلى « الحِلة » رفض رفضاً قاطعاً أن يعود دبيس إلى امارته من جديد ، وقدم للسلطان مائة ألف دينار ، مقابل ألا يسمح بعودته إلى بلاده . ولما كان السلطان محمود حريصاً على ألا يغضب الخليفة حرصه على المال الذى

---

(٧٤) الكامل جـ ١٠ ص ٦٢٨ والمختصر جـ ٢ ص ٤٣٩ ــ ٢٤٠

(٧٥) المرجع السابق ص ٦٥١ ــ ٦٥٣ .

قدم إليه ، فقد فكر فى حل يخرجه من هذا المأزق ، كى يرضى عمه من ناحية ، ولايغضب الخليفة من ناحية أخرى ، وقد هداه تفكيره إلى أن يولى دبيساً إمارة الموصل بدلا من عمادالدين زنكى الذى ولى هذه الإمارة بعد مقتل آتسنقر البرسقى ، ووفاة ابنه فى عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ وعندما علم زنكى بهذا النبأ عن طريق عيونه وجواسيسه فى قصر السلطنة ، هرول إلى بغداد ، محملاً بالهدايا والتحف ، ومعها مائة ألف دينار نقداً ، فوضعها بين يدى السلطان الذى رحب به ، وأقام ببلاطه ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى الموصل . أما السلطان فقد رحل عن بغداد بعد أن عين شحنة جديدا فيها ، ووكل اليه مهمة الإشراف على ادارة إمارة بنى مزيد (٧٦)

ويبدو أن هذا الإجراء الأخير كان حلا مؤقتا ، حتى يجد الفرصة المناسبة لإعادة دبيس إليها ، وقد صحب السلطان معه دبيساً فى عودته من بغداد إلى همذان ، فبقى بها إلى أن انتهز غفلة من السلطان عنه أثناء مرضه ، وانسل عائداً إلى العراق ، وعندما علم الخليفة بعودته جند الأجناد للقائه ، أما شحنة بغداد « بهروز » فقد كان « بالحلة » فلما علم بعودة دبيس إليها فر منها . وعند أبل السلطان من مرضه أرسل وراء دبيس اثنين من كبار أمرائه لإحضاره ، ولم يكن دبيس قادراً على مواجهتهما ، حيث شغل منذ قدومه بمحاولة تنظيم قواته من جديد ، كما أنه لم يكن راغباً فى مواجهة أحد مواجهة عسكرية حتى يستكمل هذا التنظيم ، وكان يعلم أن موقف الخلافة الرافض لوجوده فى العراق هو السبب فى اصرار السلطان على إبقائه بجانبه فى همذان ، ومن ثم حاول استدرار عطف الخليفة حتى يرضى عنه ، فيكف السلطان عن ملاحقته ، ولكن الخليفة أصر على موقفه .

وأراد السلطان أن يعاجل دبيساً قبل أن يجمع صفوفه ، فسار إلى العراق ، وحاول دبيس أن يترضاه كسباً للوقت ، فأرسل إليه هدايا ثمينة ومائتى ألف دينار ، فلم يجد قبولا لدى السلطان ، فلم يكن أمامه إلا أن ينسحب من الحلة الى الصحراء ، ثم هاجم بقواته مدينة البصرة ، واستولى على مابها من أموال الخليفة والسلطان ، فأرسل السلطان فى أثره عشرة آلاف مقاتل ، فانسحب من البصرة متوغلا فى الصحراء مرة أخرى (٧٧) .

وأثناء مقام دبيس فى البادية جاءه رسول من قلعة « صرخد » بالشام يستدعيه ليتولى

---

(٧٦) الكامل جـ ١٠ ص ٦٥٤ .

(٧٧) المرجع السابق ص ٦٥٥ .

إدارة شئونها ، لأن صاحبها (٧٨) مات وترك وراءه جارية استولت على القلعة ومافيها من الأموال ، وعلمت أنها لن يتم لها الأمر إلا اذا اتصلت برجل ذى شوكة ، فوصف الناس لها دبيساً ، ومايتمتع به من كثرة العشيرة ، فأرسلت تستدعيه لتتزوج به ، وتسلم له أمور القلعة ، فنزلت عليه هذه الرسالة — وهو فى هذه الظروف العصيبة — بردا وسلاما ، ومن ثم أسرع فى تلبية الدعوة ، وأخذ معه من يدله على الطريق ، فضل به الأدلاء فى نواحى دمشق ، فنزل بأناس من « كلب » كان يسكنون شرقى الغوطة ، فحملوه إلى تاج الملوك (صاحب دمشق) « فاعتقله اعتقال كرامة لا اعتقال إهانة » ولما كان تاج الملوك يعلم أنه مطلوب من قبل الخلافة ، فقد أراد أن يتقرب منها بتسليمه إليها ، فأنهى « الحال فى ذلك إلى الدار العزيزة الإمامية المسترشدية ، فورد الجواب عليه بالتوثق منه ، والإحتياط عليه ، إلى حين يصل إليه من يتسلمه ، ويحمله الى بغداد » (٧٩) .

ولكن تاج الملوك لم يستطع الاحتفاظ بدبيس حتى يأتى من دار الخلافة من يتسلمه ، ذلك أن دبيساً كان مطلوبا أيضا من قبل عماد الدين زنكى الذى كان يملك من الضغوط على تاج الملوك مالا يملكه الخليفة العباسى ، إذ كان يحتفظ « بسونج » ابن تاج الملوك ، ومعه عدد من قواد دمشق كانوا خرجوا من حماة لمساعدة زنكى فى إحدى معاركه ضد الصليبيين بناء على أوامر من تاج الملوك ، ولكن زنكى غدر بهم ، وقبض عليهم ، وإستولى على حماة من أيديهم ، وظل يحتفظ بهم رهائن عنده ، فلما سمع بقبض تاج الملوك على دبيس ، أرسل إليه يطلب منه دبيسا فى مقابل إطلاقه سراح سونج ومن معه ، فأجابه تاج الملوك إلى ماأراد ، وأرسل له دبيسا بعد أن أخلى زنكى سبيل سونج ومن معه ، وكان ذلك فى الثامن من ذى القعدة سنة ٥٢٥ هـ /١١٣١ (٨٠)

ويذكر ابن الاثير : أن السبب الذى دعا زنكى إلى السعى فى الحصول على دبيس أنه كان يقع فيه ، وينال منه ، ومن ثم أيقن دبيس بالهلاك عندما وقع فى قبضة زنكى ، ولكنه فعل معه غير ماتوقع ، فأحسن إليه ، وحمل له الأقوات والسلاح والدواب ، وقدمه على نفسه ، وفعل معه مايفعله مع أكابر الملوك (٨١)

---

(٧٨) هو فخر الدولة كمشتكين الخادم التاجى توفى فى جمادى الآخر سنة ٦٢٥ هـ (ابن القلانس ص ٢٣١)

(٧٩) المرجع السابق ص ٣٠ — ٢٣١ والكامل جـ ١٠ ص ٦٦٨

(٨٠) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣١

(٨١) الكامل جـ ١٠ ص ٦٥٨ — ٦٥٩ ، ٦٦٨ — ٦٦٩

ولنا أن نتساءل هل صحيح ماذكره ابن الأثير من ان دافع زنكى للحصول على دبيس هو انه كان يقع فيه وينال منه ؟ لو أن الأمر كذلك لما أحسن معاملته ، ولما أمده بالسلاح والدواب ، ولما قدمه على نفسه ، بل لانتقم منه شر إنتقام ، خاصة وأن التنافس بينهما على إمارة الموصل كاد أن ينتزع زنكى عن عرشه انتزاعا لولا تمرس زنكى بأساليب التعامل مع السلاطين .

إذن ماهى الأسباب الحقيقية ؟ إن من بين هذه الأسباب أن دبيسا كان طريد الخليفة المسترشد ، ولم يكن زنكى على علاقة طيبة به ، وكان السلطان محمود قد توفى فى شوال من عام ٥٢٥ هـ /١١٣١ أى قبل أن يتسلم زنكى دبيسا بأقل من شهر ، وأصبح واضحا أن جولة من الصراع قادمة لامحالة بين ملوك البيت السلجوقى ، فهناك سنجر بن ملكشاه الذى يعتبر نفسه السلطان الأعظم ، وكبير هذا البيت ، ثم هناك أبناء أخيه إخوة السلطان محمود : مسعود وطغرل ، وسلجوقشاه ، ثم هناك داود ابن السلطان المتوفى الذى خطب له فى معظم أملاك أبيه ، وأخيرا هناك الخلافة العباسية التى تحاول بزعامة المسترشد ان تسترد بعض نفوذها الدنيوى ، ولن يكون ذلك إلا على حساب نفوذ السلاطين ، الأمر الذى سيجعل الصدام بين الخلافة والسلطنة أمرا واقعا لامحالة .

كل هذه التوقعات كان يدركها زنكى بحس المغامر الطموح ، فهو يعلم أن دبيسا ورقة رابحة يمكنه الاحتفاظ بها لمواجهة مايستجد من المواقف والظروف ، لأنه عدو الخليفة اللدود ، ومن ثم يمكن الاستفادة منه فى الجولة المقبلة من الصراع على النفوذ بين سلاطين السلاجقة والخلافة العباسية ، هذا الصراع الذى يعلق زنكى أمالا كباراً على الانغماس فيه ، لصالح هذه القوة ، أو تلك ، مراعيا فى ذلك الحصول على نصيب الأسد من الغنيمة .

وحدث ماتوقعه زنكى ، فقد خرج مسعود بن محمد على ابن اخيه السلطان : داود ابن محمود ، وجرى بينهما قتال فى مدينة تبريز فى المحرم سنة ٤٢٦ هـ /١٠٣٤ ثم رحل مسعود إلى همذان ، وأرسل الى الخليفة يطلب منه أن يخطب له فى بغداد ، كما أرسل داود يطلب ذات الطلب من الخليفة ، ولم يكن المسترشد راغبا فى أن يخطب لهما أو لغيرهما على منابر بغداد ، فأجابهما بأن سنجر هو كبير هذا البيت فمن أذن له فى الخطبة خطبنا له ، ثم أرسل إلى السلطان سنجر يطلب منه ألا يأذن لأحد منهما ، لأن الخطبة فى بغداد ينبغى

أن تكون للخليفة وحده (٨٢)

ومن العجيب أن يذكر ابن الأثير أن طلب الخليفة هذا وقع من نفس سنجر موقعا حسنا ، وهذا لايكون إلا إذا كان سنجر يرى أن ذلك سيفيده مرحليا فقط أثناء احتدام الصراع على النفوذ والسلطان بين أفراد البيت السلجوقى . أما بدون ذلك ، فهو مطلب لابد أن يثير فى نفسه الكثير من القلق والمخاوف ، لأنه يعنى انتقاصا من نفوذ السلاطين فى عاصمة الخلافة . هذا ماأكدته الاحداث عندما عزم سنجر على الزحف نحو العراق ، بعد أن قويت نزعة الخلافة إلى الاستقلال ، وزادت حدة الصراع على السلطنة بين الملوك من أبناء البيت السلجوقى .

كان أسبق ملوك السلاجقة إلى الزحف باتجاه العراق هو مسعود بن محمد الذى كاتب عماد الدين زنكى فوعده النصرة ، ثم وصل أثابك السلطان سلجوقشاه فى عسكر كثيف إلى بغداد ، ونزل فى دار السلطان فأكرمه الخليفة ، واستحلفه لنفسه ، ثم وصل رسول مسعود يطلب الخطبة فلم يجب إلى ذلك ، فبدأ الفريقان يستعدان للقتال ، وانحدر زنكى من الموصل للوقوف بجانب مسعود ، ولكن جيش سلجوقشاه بالتعاون مع جيش الخليفة أوقعا به هزيمة كبرى عاد على أثرها إلى الموصل . وأثناء المناوشات التى دارت بين عسكر سلجوقشاه وعسكر مسعود علم مسعود بهزيمة زنكى ، فتراجع الى الوراء ، فأرسل الى الخليفة يؤكد له مسير سنجر إلى العراق ، وأنه وصل إلى « الرى » وانه من الخير أن يتحد الجميع لمواجهته ، ودفعه عن العراق ، على أن تكون السلطنة لمسعود ، وولاية العهد لسلجوقشاه ، وأن يكون العراق لوكيل الخلافة فتحالفوا على ذلك (٨٣)

وصل سنجر إلى همذان وبصحبته ابن أخيه طغرل بن محمد ، وإستعد المتحالفون الثلاثة لمواجهته ، فقطعوا الخطبة له من العراق كله ، وبعد أن بدأ موكب الخلفاء بالمسير نحو همذان ظهر المغامرون على مسرح الأحداث ، حيث شوهد زنكى ، ومعه دبيس على مقربة من بغداد ، وكان سنجر قد كاتبهما ، وأمرهما بالزحف على بغداد ، فاضطر المسترشد إلى العودة لعاصمته ليواجه هذا الخطر الجديد ، ولكن الرجلين لم يبديا صفحتهما للخليفة ، وأراد أن يحصلا منه على ماقدمه السلطان سنجر لهما ثمنا لتحركهما فأما دبيس فقد طالب الخليفة بأن يسمح له بالعودة إلى « الحلة » لأن السلطان سنجر أقطعه إياها ،

---

(٨٣) الكامل جـ ١٠ ص ٦٧٤ ــ ٦٧٦

ولو وافق الخليفة على ذلك فسيقف عند حدود السمع والطاعة . وأما زنكى فقد أراد أن يضم إلى إمارة الموصل شحنكية بغداد ، تنفيذا لرغبة السلطان سنجر فى هذا الشأن ، فلم يكن أمام المسترشد إلا أن يستعد لمواجهة هذا الخطر الجديد ، فى الوقت الذى تقدم فيه الأخوان : مسعود وسلجوقشاه لمواجهة عمهما وأخيهما فى فارس ، وإلتقى الفريقان عند الدينور فى رجب ٥٢٦ هـ /١١٣٢ فهزم جيش مسعود ، وفر من المعركة . ولكن سنجر كان حريصا على أن يعيد لهذا البيت وحدته ، فأمن مسعودا ، وأرسل فى طلبه فأكرمه ، وعاتبه على الخروج والعصيان ، ثم أعلن أن طغرل بن محمد ـــ الذى كان بصحبته ـــ هو السلطان ، فخطب له فى جميع البلاد (٨٤)

وأما المسترشد فقد عبر بجنده إلى الجانب الغربى من بغداد لمواجهة زنكى ودبيس ، وحمل الخليفة عليهما بنفسه ، وصمد زنكى إلا أن الناس تفرقوا عنه ، فحلت به وبحليفه الهزيمة ، فعاد إلى الموصل ، وأما دبيس فقد لجأ إلى الحلة ، وجمع الجموع لتحريرها من قبضة الخليفة ، وكان ينوب عنه فى إدارة شئونها خادمه : إقبال المسترشدى ، فأمده الخليفة بجند من بغداد فتمكن من هزيمة دبيس . وعندما لجأ دبيس إلى بعض القبائل فى واسط والبطيحة ، وتكررت المواجهة هزم أمام جند الخليفة فى عام ٥٢٧ هـ /١١٣٣ (٨٥)

ولم يعد دبيس يملك إلا التنقل بولائه بين سلاطين السلاجقة المتصارعين الذين لم يحسم الخلاف بينهم توليةُ سنجر لطغرل بن محمد سلطانا عليهم ، فبمجرد رحيل سنجر إلى خراسان خرج داود بن محمود على عمه طغرل ، ونشبت المعارك بينهما ، وقد شجع هذا السلطان مسعودا على أن يخرج هو الآخر على أخيه : طغرل ، ودارت معارك بين الطرفين . وحين هزم دبيس فى واسط أمام جند الخليفة لجأ إلى السلطان مسعود الذى أحسن إستقباله ، وخلع عليه . وقد أحزن ذلك الخليفة الذى كان مايزال يتظاهر بأنه فى صف مسعود ، فاضطره هذا الموقف ـــ بعد أن إستشعر الغدر من مسعود ـــ إلى العودة إلى بغداد ، وقد كان مقيما على حصار الموصل إنتقاما مما فعله زنكى عندما هاجم هو ودبيس بغداد فى العام السابق ٥٢٦ هـ ١١٣٢ (٨٦)

---

(٨٤) الكامل جـ ١٠ ص ٦٧٧ ـــ ٦٧٨

(٨٥) المرجع السابق ص ٦٧٨ ـــ ٦٧٩ ، والمنتظم جـ ١٠ ص ٣٠

(٨٦) المنتظم جـ ١٠ ص ٣٠

وعندما هزم مسعود فى بعض المعارك أمام أخيه طغرل ، وجدنا دبيساً فى الجانب الآخر وقد أشار على طغرل بأن يستولى على خلع كان الخليفة قد أرسلها إلى خوارزمشاه ، ويدعى بين الناس أن الخليفة أرسلها إليه هو ، كى ينصرف الجند عن أخيه مسعود إذا ماعلموا أن طغرل يحظى بتأييد الخليفة ودعمه ، وقد نجحت الحيلة التى أشار بها دبيس ، فمالت العساكر الى طغرل ، ودخل العاصمة همدان منتصرا ، وانحل — مؤقتا — أمر أخيه مسعود إلى أن استدعاه الخليفة إلى بغداد ، فوصل إليها متخفيا وليس معه سوى ثلاثين فارسا ، وذلك فى أواخر عام ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ (٨٧) .

وعندما توفى السلطان طغرل فى المحرم من عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ وفقد دبيس الناصر والمعين ، وبدا واضحاً أن مسعودا الذى أساء إليه دبيس — سيكسب الجولة الأخيرة لم يكن أمام دبيس إلا أن يطرق أبواب الخلافة من جديد ، مبدياً الأسف والندم ، فهو الخاطىء المقر بذنبه ، وسيمتثل مايأمر به الخليفة ، ولكن رسوله مات فى الطريق قبل أن يصل إلى بغداد . وكانت العلاقات قد أخذت تسوء بين الخليفة ومسعود بعد أن مات السلطان طغرل ، وأصبح مسعود بلا منافس ، ومن ثم سيقل اعتماده على الخليفة الذى كان يؤيده فى هذا الصراع . بل إن سير الأحداث كان ينبىء عن أن الجولة الأخيرة من الصراع بالنسبة لمسعود ستكون مع الخليفة المسترشد الذى اتسع نفوذه ، وازداد خطره ، فأدرك دبيس وسط هذه الظروف المحيطة به أنه لو طرق باب مسعود فلن يُغلِق الباب دونه ، وهذا ماحدث بالفعل . فقد رحب به مسعود ، حتى يكون عوناً له فى الجولة المقبلة من الصراع مع الخليفة المسترشد عدوه اللدود (٨٨) .

وبدأ الفريقان فى التحرك ، وكان دبيس فى مقدمة جيش السلطان مسعود ، وقد استطاع أن يوقع الهزيمة بمقدمة جيش الخلافة التى خرجت فى رجب من عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ فعادت إلى بغداد على درجة من السوء ، فرد الخليفة على ذلك بقطع الخطبة لمسعود ، وخطب للسلطان سنجر ، واستفتى الفقهاء فى عزل مسعود ، فأفتوا بذلك . وقد خرج الخليفة بنفسه على رأس الجيش لقتال مسعود فى التاسع عشر من رجب من نفس السنة ، ورحل عن بغداد فى أوائل شعبان ومعه سبعة آلاف فارس ، والتقى الجمعان فى

---

(٨٧) المنتظم جـ ١٠ ص ٣٥ — ٣٦

(٨٨) المرجع السابق ص ٤٢

رمضان فهزم المسترشد بعد أن تخلى عنه أكثر جنده من الترك ، ووقع فى أسر السلطان مسعود ، وبقى كذلك إلى أن جاءت رسالة من السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود يأمره بالافراج عن الخليفة ، وإعادته الى بغداد ، وأن يسلم إليه دبيساً ليرى فيه رأيه « فهو الذى أحوج أمير المؤمنين إلى هذا ، وأحوجنا أيضاً إلى مثل هذا » وقد ضرب مسعود سرادقاً للخليفة بعيدا عن المعسكر ، ودخل إليه معتذراً ، ومشى معه إلى السرادق ، ثم سأله أن يشفعه فى دبيس بعد أن جاء به مكتوفاً ، فعفا عنه ، وتقدم بحل يديه . ثم وصل رسول من سنجر للمرة الثانية يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة الى بغداد ، ومعه عسكر عظيم ضم عدداً من الباطنية انتهزوا فرصة خروج السلطان لاستقبال رسول عمه ، وهجموا على المسترشد فقتلوه فى سابع عشر من ذى القعدة ٥٢٩ / ١١٣٥ (٨٩) .

وليس يعنينا هنا ماإذا كان هذا الأمر قد تم بتدبير من سنجر ومسعود أو أن هذا الأمر قد حدث دون علمهما ، وبرغم إرادتهما ، ولكن الذى يعنينا أن رحلة دبيس المتعثرة قد أوشكت على النهاية بعد مقتل المسترشد ، فقد احتفظ السلاجقة دوما بدبيس ليكون عدتهم فى صراعهم مع المسترشد ، مستغلين فى ذلك العداء الشديد والسافر بين دبيس والخليفة . أما وقد انتهت حياة المسترشد فلم يعد لدبيس دور يؤديه سوى أن يحمل فى اللحظات الأخيرة من حياته تبعة دم المسترشد ، فمادام قد أشيع أن قاتليه من الباطنيه ، ودبيس رجل شيعى ، والنظرة المتعصبة فى الظروف العصيبة من جانب أهل السنة لاتفرق بين شيعى وباطنى فلا بأس من أن يُحمّل تبعة دم الخليفة ، ويتهم بأنه كان وراء تدبير مقتله ، ومن ثم وجب عليه القصاص ، فأرسل إليه السلطان غلاماً أرمنيا ، ووقف على رأسه ، وهو ينكت الأرض ، فقتله غدراً بعد مقتل المسترشد بثمانية عشر يوما « وأظهر السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا إنتقاماً منه بما فعل فى حق الإمام » (٩٠) .

اصطاد السلاجقة أسدين بسهم واحد ، ولم يكن من الطبيعى أن تستقر الأمور بصورة عاجلة للسلطان مسعود بعد هذه الأحداث الجسام ، فهناك — على الأقل — أصحاب الثارات الذين عقدوا العزم على الثأر لقتلاهم ، وفى مقدمتهم الخليفة الجديد : الراشد بن

---

(٨٩) المنتظم جـ ١٠ ص ٤٤ — ٤٥

(٩٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٦٥ ، والمنتظم جـ ١٠ ص ٥٢ — ٥٤ والذهبى : دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٩ ، والمختصر جـ ٣ ص ١٠

المسترشد ، والأمير : صدقة (الثانى) ابن دبيس ، ثم هناك بقايا الطامحين إلى منصب السلطان ، ومنهم الأمير داود بن السلطان محمود الذى سبق أن بويع بالسلطنة إثر وفاة أبيه ، ولم يسلم بعد بالأمر الواقع ، وأخيراً هناك المغامرون الذين اعتادوا أن يحققوا المزيد من المكاسب وسط لهيب الحروب والصراعات .

وقد تكون تحالف من هؤلاء جميعا ٥٣٠ هـ /١١٣٥ لمواجهة السلطان مسعود ضم الخليفة الراشد ، وصدقة بن دبيس ، وداود بن السلطان محمود ، وعماد الدين زنكى ، واجتمع معهم كثير من الأمراء ، وأصحاب الولايات . ولما علم مسعود بأخبار هذا الحشد المعادى له فى بغداد تحرك نحوهم ، وحاصر بغداد نيفا وخمسين يوماً . وحين تمكن من عبور دجلة إلى الجانب الغربى اختلفت كلمة المتحالفين ، وانفرط عقدهم ، فعاد داود إلى بلاده ، وتفرق بقية الأمراء . أما الخليفة الراشد فقد رحل عن بغداد إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكى ، فاستفتى مسعود الفقهاء فى خلعه ، فأفتوا بالخلع بعد أن أبرز لهم السلطان كتاباً بخط يده يلتزم فيه بخلع نفسه إن جند جنداً ، أو خرج بالسيف على أصحاب السلطان ، وبويع للخليفة المقتفى لأمر الله . أما صدقة بن دبيس ، فقد سلك مسلك أبيه ، إذ مال فى النهاية إلى الجانب الأقوى ، فأصلح حاله مع السلطان مسعود ، ولزم خدمته ، وتبادلا الزيجات السياسية ، حيث زوج السلطان ابنته لصدقة أملاً فى أن يستل بذلك مافى قلبه من الضغينة ، وتزوج هو أخت صدقة ابنة دبيس القتيل (٩١) .

لم يستسلم الخليفة الراشد لقرار عزله فقد رحل عن زنكى ــ بعد أن تخلى عنه ــ نحو اقليم أذربيجان ، وانضم إليه العديد من أمراء هذه المنطقة ، كما وصل إليهم الملك داود ، واتفقوا على حرب مسعود ، وإعادة الراشد إلى الخلافة ، فخرج اليهم مسعود فى شعبان من عام ٥٣٢ /١١٣٨ والتقى الفريقان فهزم معسكر الراشد ، وبعد أن تحقق النصر لمسعود ، وانتشر عسكره فى النواحى يعبثون وينهبون ، وبقى هو فى قلة من جنده كرّ عليه خصومه فلم يثبت أمامهم ، ولاذ بالفرار ، تاركاً وراءه بعض أمرائه الذين وقعوا فى الأسر ، ومنهم صدقة بن دبيس ، فقتلوا جميعاً ، فأقر السلطان أخاه محمد بن دبيس أميراً على الحلة (٩٢) .

---

(٩١) الكامل جـ ١١ ص ٣٦ ــ ٤٧ ، ٦٥ .

(٩٢) المرجع السابق ص ٦٠ ــ ٦١ .

ويبدو أن محمدا هذا لم يكن الإبن الأكبر لدبيس بدليل أن السلطان عين إلى جانبه أميراً تركياً يدبر أمره ، أما الابن الأكبر والأقوى وهو على بن دبيس فقد احتفظ به السلطان فى بلاطه ، مخافة أن يشق عصا الطاعة ، أو أن يخرج مطالباً بثأر أبيه . وقد استطاع علىّ هذا أن يفر من بلاط السلطان فى بغداد فى عام ٥٤٠ هـ /١١٤٥ إلى الحلة ، وأن يتغلب على أخيه محمد ، فتوجه جند السلطان لتأديبه ، ففر إلى بغداد ، وسرعان مااستفحل أمره من جديد ، واستولى على إقطاعات الأمراء فى منطقة الحلة ، وتوجس منه شحنة بغداد ومن فيها خيفة ، فعين الخليفة جماعة على الأسوار لحفظها ، لكنه طمأن الخليفة بأنه سيظل طوع أمره ورهن إشارته ، فاطمأن الناس (٩٣) .

وإذا كانت سياسة على بن دبيس ستقوم على أساس الطاعة للخليفة ، فإن سياسته تجاه السلطان مسعود كانت تسير فى اتجاه آخر ، فلم يستطع مسعود أن يستل مافى قلبه من ضغينة كما فعل مع أخيه صدقة عندما أقره على إمارة أبيه ، وزوجه بابنته ، بل على العكس من ذلك فإن سياسة مسعود تجاهه قد ضاعفت أحقاده عليه ، حيث قدم عليه فى الإمارة أخاه الأصغر ، واحتفظ به شبه أسير لديه ليكون تحت سمعه وبصره ، لذا فما إن تمكن من بسط سلطانه حتى أعاد إلى الأذهان سياسة أبيه « دبيس » ، فكثر فساد أصحابه فى المناطق المجاورة له ، وضج الناس بالشكوى منه إلى السلطان ، فأقطع إمارته لبعض قواده ، وأمره بالمسير إليها ، وقد تمكن هذا القائد أول الأمر من هزيمة على والاستيلاء على إمارته ، فلجأ على إلى بعض الأمراء الأتراك المعادين لمسعود ، فهبوا لنجدته ، وتمكن من استعادة الحلة فى ذى الحجة من عام ٥٤٢ هـ/ ١١٤٨ (٩٤) كما انتهز فرصة خروج بعض الأمراء على مسعود ، وزحفهم على العراق ، ومعهم ملكشاه بن محمود فانضم إليهم ، وطلبوا من الخليفة أن يخطب لملكشاه فلم يجبهم إلى ذلك ، وأرسل يستدعى السلطان ليواجه الموقف ، فلما علم الأمراء بمكاتبة الخليفة لمسعود نهبوا مدينة النهروان ، وقبضوا على علىّ بن دبيس حليفهم ، وعندما مر السلطان مسعود بالنهروان فى طريقه إلى بغداد أطلق على بن دبيس من محبسه ، فجاء علىّ وألقى بنفسه بين يديه ، واعتذر له فرضى عنه (٩٥) .

---

(٩٣) الكامل جـ ١١ ص ١٠٥

(٩٤) المرجع السابق ص ١٢٢

(٩٥) المرجع السابق ص ١٤١

وقد يعجب المرء من تصرف هؤلاء الأمراء الخارجين عندما قبضوا على حليفهم على بن دبيس إثر ماسمعموه عن مكاتبة الخليفة للسلطان مسعود ودعوته إلى العراق ، ولكن هذا التصرف من جانبهم يوحى لنا بأن ثقة هؤلاء الأمراء بعلى لم تكن كاملة. وربما توقعوا أن يكون عنصرا من عناصر الخيانة والتخاذل إذا قدم عليهم السلطان ، فاحتاطوا لأنفسهم . ولم يمتد العمر بعلىّ بعد هذه الحادثة إذ توفى بعدها بعام واحد فى عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ بمدينة أسد آباد فى إيران واتهم طبيبه بأنه تواطأ عليه وتآمر (٩٦) .

كان على آخر أمراء بنى مزيد ، إذ اقطعت إمارتهم من بعده إلى الأتراك من أمراء السلاطين ، وقد استطاع الخليفة المقتفى فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ أن ينتزعها منهم ، ويجعلها تابعة للخلافة تبعية مباشرة ، منتهزاً تفكك البيت السلجوقى وضعفه إثر وفاة السلطان مسعود فى رجب من هذا العام (٩٧) .

****
****

(٩٦) الكامل جـ ١١ ص ١٥٢ ، والتنظيم جـ ١٠ ص ١٤٦ وذكر ابن الجوزى وفاته فى عام ٥٤٦ هـ

(٩٧) الكامل جـ ١١ ص ١٦٠ — ١٦٢

علاقات بنى مزيد بالخلافة العباسية :

لعل من المفيد بداية أن نحدد النقاط التى نرى أنها لعبت الدور الأكبر فى تحديد وتكييف علاقة بنى مزيد بالخلافة العباسية .

أولا : نذكر بما سبقت الاشارة اليه من أن « بنى مزيد » وهم بطن من قبيلة أسد كانوا من المتشيعين للإمام على وأولاده ، شأنهم فى ذلك شأن معظم القبائل العربية التى هاجرت إلى العراق ، واستقرت منذ وقت مبكر . وهذا الإتجاه المذهبى سيكون ذا تأثير واضح فى تشكيل علاقات أمراء هذا البيت بالخلافة العباسية السنية .

ثانيا : أن عاصمة الخلافة لم يكن كل سكانها من السنة ، بل إن تركيبتها السكانية قد توزعت بين أغلبية سنية ، وأقلية لايستهان بحجمها من الشيعة ، تركز معظمها فى منطقة الكرخ من بغداد .

ثالثا : أن العلاقة بين السنة والشيعة فى بغداد تعرضت لهزات عنيفة منذ أن سيطر البويهيون الشيعيون على الخلافة السنية فى عام ٣٣٤ هـ /٩٤٥ وحاولوا استغلال نفوذهم — فى عصر قوتهم — لفرض الشعائر الشيعية فى عاصمة الخلافة ، فقابل أهل السنة هذا السلوك بالاستياء ، والرفض الهادىء ، فى الوقت الذى ابتهج به عامة الشيعة . فلما ضعف بنوبوية ، ولم يعد بامكانهم أن يقدموا لجمهور الشيعة ماسبق أن قدموه لهم من دعم وتأييد انقلب ميزان القوى لصالح السنة ، واندلعت الفتن المذهبية بين الفريقين بعد موت معزالدولة أحمد البويهى فى عام ٣٥٦ هـ /٩٦٧ واستمرت حتى نهاية الدولة فى عام ٤٤٧هـ /١٠٥٥ وقد كان الشيعة فى بغداد يتطلعون إلى بنى مزيد على أنهم قادرون — بنفوذهم — على توفير الحماية والأمن لهم ، بعد أن أصبح بنو بوية عاجزين عن القيام بهذه المهمة .

رابعا : إن هذه الامارة قد عاصرت — فى أخريات أيامها — صحوة الخلافة العباسية ، ومحاولاتها استعادة سلطانها الدنيوى على العراق ، وقد كان لذلك تأثيره على الكيانات السياسية الصغيرة فى هذا الاقليم ، ومنها إمارة بنى مزيد .

إن هذه النقاط التى أشرنا إليها ستتمركز حولها معظم مظاهر العلاقات بين بنى مزيد والخلافة العباسية ، ومن مظاهر هذه العلاقات ماحدث من صدام بين أمراء هذا البيت

والخلافة العباسية فى أواخر أيام بنى بوية (أعنى فى مرحلة ضعفهم) ففى عام ٤٤٣هـ /١٠٥١ تجددت الفتنة بين السنة والشيعة فى بغداد ، فأحرق السنة بعض مشاهد الشيعة وفيها قبر موسى الكاظم (الإمام السابع من أئمة الشيعة الاثناعشرية) فلما انتهى خبر ذلك إلى نور الدولة : دبيس (الأول) « عظم عليه ، واشتد ، وبلغ منه كل مبلغ ، لأنه وأهل بيته ، وسائر أعماله .. كلهم شيعة » (٩٨) وكان رد فعله تجاه هذا الأمر أنه قطع الخطبة للقائم بأمر الله العباسى فى أعماله كلها ، ولم يملك الخليفة أمام هذا التحدى السافر غير العتاب فاعتذر دبيس للخليفة بأن رعيته كلهم من الشيعة ، وقد طالبوه بهذا الأمر ، فلم يستطع أن يشق عليهم . ولم ينس فى هذا الإعتذار أن يرمى الخليفة بالعجز عن ضبط الأمور فى عاصمته ، فأشار إلى أن الخليفة هو الذى ألجأه إلى هذا السلوك عندما عجز عن كف السفهاء الذين فعلوا بالمشهد مافعلوا (٩٩) وبعد توجيه هذا اللوم العنيف إلى الخليفة أعاد الخطبة له مرة أخرى .

وحين وصل السلاجقة إلى بغداد فى عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ وترتب على ذلك ماترتب من إندلاع ثورة البساسيرى ، ووقوف الخلافة الفاطمية وراء هذه الثورة بدعمها المادى ، وجدنا دبيس بن على فى عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ ينضم لهذه الحركة ، ويخطب فى أعماله كلها للمستنصر الفاطمى ، بل يشارك فى الجهود العسكرية التى قام بها البساسيرى ضد السلاجقة فى شمالى العراق ، ويقنع قريش بن بدران العقيلى بالإنضمام إلى معسكره ، وأن يخطب فى الموصل (عاصمة إمارته) للخليفة الفاطمى بدلا من الخليفة العباسى ، ومع ذلك كله فقد كان دبيس فى تحركه — أثناء ثورة البساسيرى — يتبع سياسة إمساك العصا من الوسط ، لأسباب عدة — أشرنا إلى معظمها فيمامضى — من بينها أنه لم يكن مقتنعا تماما بسلامة الأسلوب الذى تقف به الخلافة الفاطمية وراء ثورة البساسيرى ، وأنه كان يجب عليها أن تلقى بثقلها الأدبى والمادى والعسكرى لإنجاح هذه الثورة ، حتى تحقق أهدافها ، ولاتكتفى فى هذا المجال بإرسال بعض الأموال والعتاد لقادة هذه الثورة . وقد وضحت وجهة نظر دبيس هذه من خلال رسالة بعث بها إلى المؤيد : داعى الدعاة هبة الله الشيرازى عندما أرسل إليه الأخير يؤنبه على صلحه مع طغرلبك فى عام ٤٤٩ هـ /١٠٥٧

---

(٩٨) الكامل جـ ٩ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٩٩) المرجع السابق ص ٥٧٥ — ٥٧٨ .

فقد كان من رأى دبيس أن يتصدى لقيادة هذه الثورة أحد الأمراء من أبناء الخليفة المستنصر وليس أبوالحارث البساسيرى ، وأن يخرج فى ركابه وزير المستنصر « بفيض من الأموال والخزائن ، والرجال » (١٠٠) لأن ذلك لو تحقق لكان من شأنه أن يهيىء لهذه الثورة زخما يدفعها إلى الأمام ، ويدفع جماهير الناس — وبخاصة شيعة البيت العلوى — إلى الإلتفاف حولها ، والنضال من أجل نجاحها .

وقد وضحت سياسة إمساك العصا من الوسط هذه فى موقف دبيس من الخليفة العباسى عندما زحف حليفه البساسيرى على بغداد فى عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ بعد انصراف طغرلبك عنها وراء أخيه الثائر إبراهيم ينّال . لقد استنجد الخليفة بدبيس فهب لنجدته فى مائة فارس ، وطلب من الخليفة ومن وزيره أن يخرجا معه من بغداد ، حتى يستطيع أن يوفر لهما الحماية والأمن . ولكن الخليفة تردد فى أمر الخروج ، وطلب من دبيس أن يقيم فى بغداد حتى يفكر فى الأمر ، فاعتذر له بأن العرب الذين معه لاتطيعه على المقام ، وأنه سيتوقف بمن معه عند نهر « ديَالى » * فإذا انحدر إليه الخليفة ووزيره سار فى خدمتهما . ثم أقام ينتظرهما فترة ، فلم يأت إليه أحد ، فعاد إلى بلاده (١٠١) .

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى استنجدت الخلافة فيها بأمراء بنى مزيد ، بل كثيرا ماكانوا ينتدبون لكف عادية المهاجمين لبغداد ، أو لحفظ الأمن فيها ، إذا اندلعت الفتن بين السنة والشيعة . ومن هنا كان لهؤلاء الأمراء نفوذهم ومكانتهم فى عاصمة الخلافة .. هذا النفوذ الذى استمدوه غالبا من قدرتهم على تجميع صفوف القبائل التى تخضع لهم وتجنيدها فى أى جهد عسكرى ينتدبون إليه ، كما استمدوه أيضا من النفوذ الأدبى الذى كانوا يتمتعون به تجاه شيعة بغداد . ومن هنا حرص الأمراء الأول فى هذا البيت ، وخاصة دبيس (الأول) ومنصور ، وصدقة (الأول) — بعد استقرار أمر السلاجقة فى العراق — على أن يكونوا فى خدمة الخلافة العباسية ، طالما أن ذلك لايتعارض مع مصالحهم السياسية ، فإثر وفاة طغرلبك فى رمضان ٤٥٥ هـ / ١٠٥٣ توقع الخليفة العباسى أن تتعرض العاصمة لأعمال السلب والنهب إلى أن تستقر الأمور للسلطان الجديد . فكاتب

---

(١٠٠) سيرة المؤيد : ص ١٥٩ .

* ديالى : نهر كبير قرب بغداد (معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٩٥)

(١٠١) الكامل جـ ٩ ص ٦٤٠ — ٦٤١ .

أمراء الأطراف المجاورين له يستدعيهم لحماية بغداد ، والحفاظ على الأمن فيها ، وكان من هؤلاء الأمراء دبيس بن مزيد الذى خرج وزير الخليفة لاستقباله ، تكريما له (١٠٢) .

وعندما اشتعلت الفتنة بين السنة والشيعة فى بغداد عام ٤٨٢ هـ /١٠٨٩ وعجز الخليفة ونواب السلطان عن ضبط الأمور بها ، انتدب الخليفة سيف الدولة صدقة بن منصور (الأول) لإخماد هذه الفتنة ، فأرسل إليه عسكراً تتبعوا المفسدين واللصوص ، وهدموا عليهم بيوتهم ، وقتلوا منهم وشردوا ، فسكنت الفتنة ، وعاد الأمن والسلام (١٠٣) .

وفى أثناء الصراع بين أمراء البيت السلجوقى — بعد وفاة ملكشاه فى عام ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ — سير تتش (أخو ملكشاه ، والمطالب بعرشه) شحنة لـه إلى بغداد ، فمُنِع من دخولها ، ولم ينقذ المدينة منه سوى مسير صدقة اليها (١٠٤) .

وكان لبعض أمراء هذا البيت نفوذهم القوى فى قصر الخلافة ، فعندما عزل فخرالدولة ابن جهير من وزارة الخليفة عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ لجأ إلى دبيس فشفع له لدى الخليفة العباسى ، فأعاده إلى الوزارة من جديد (١٠٥) كذلك كان أمراء هذا البيت يحرصون بإصرار على التمسك بتقاليدهم العربية ، وفى مقدمتها ، حماية المستجير بهم ، والدفاع عنه ، حتى لو أدى ذلك إلى إثارة الحقدعليهم من قبل الخليفة أو السلطان . فعندما فر أبوالقاسم على بن فخر الدولة بن جهير من اعتقال الخليفة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ سار إلى سيف الدولة صدقة (الأول) فبسط عليه حمايته ، وأمنه (١٠٦) وبقى عنده إلى أن استقدمه الخليفة المستظهر بالله من الحلة ، وأسند إليه الوزارة فى عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ (١٠٧) .

وقد كانت لصدقة دار فى عاصمة الخلافة من لجأ إليها مستجيرا بصاحبها — حتى ولو لم يكن موجودا بها — مااستطاع أحد أن يمسه بسوء . وهذا وضع شديد الشبه الآن بلجوء بعض المضطهدين السياسيين إلى السفارات الأجنبية فى بلادهم فيتمتعون بحماية الدول أصحاب هذه السفارات طالما بقوا بها . وقد حدث ذلك فى عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦

---

(١٠٢) الكامل جـ ٩ ص ٢٧

(١٠٣) الكامل جـ ١٠ ص ١٧٧ .

(١٠٤) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(١٠٥) المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨ .

(١٠٦) المرجع السابق ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(١٠٧) المرجع السابق ص ٣٦٦ .

عندما عزل الوزير سالف الذكر : أبو القاسم من وزارة الخليفة ، فلجأ الى دار صدقة فى بغداد ، محتميا بها « وكانت ملجأ لكل ملهوف » فأرسل إليه صدقة من حمله إليه فى الحلة ، ولم يجد الخليفة مايشفى به غليله منه سوى أن أمر بنقض داره فى بغداد (١٠٨) . وليس هناك أدل على تمسك بعض أمراء بنى مزيد بحماية المستجير من أن صدقة دفع حياته ثمنا لإجارة " سُرخاب " الديلمى ، الفار من أمام السلطان محمد بن ملكشاه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ونتيجة لما كانت تتمتع به دار صدقة فى بغداد من حرمة ، فقد حرص الخليفة المستظهر بالله إثر مصرع صدقة فى عام ٥٠١ / ١١٠٨ على أن يلحق هذه الدار بجامع قصر الخلافة ــ وكانت مجاورة له ــ حتى يقضى على ظاهرة اللجوء السياسى إليها .

وكانت قضية اللجوء السياسى إلى بنى مزيد من الأسباب التى أدت إلى توتر العلاقات بين الخليفة المسترشد بالله ــ الذى خلف أباه المستظهر عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ ودبيس (الثانى) بن صدقة ، فبعد البيعة للمسترشد هرب أخوه أبو الحسن من بغداد ، والتجأ الى دبيس فى الحلة ، فاستقبله إستقبالا حسنا ، وبالغ فى إكرامه . وقد أهمّ ذلك الخليفة المسترشد ، وطلب من دبيس إعادة أخيه إلى بغداد ، فأجابه بأنه « عبدالخليفة ، وواقف عند أمره ، ومع هذا فقد استذم بى ، ودخل منزلى ، فلا أكرهه على أمر أبدا » (١٠٩) ولكن دبيسا تعهد لرسول الخليفة بأن يصلح بين الأخوين ، وأن يسير بنفسه مع الأمير أبى الحسن إلى حضرة الخلافة . ولكن تطورات الأحداث فى بغداد جعلت هذا الأمير يبقى فى ضيافة دبيس حتى شهر صفر من عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ ولم يشأ أن يسبب حرجاً لمضيفه بعد أن ألح الخليفة فى طلبه ، فرحل عن دبيس إلى واسط ، وتملكها ، وتجمع حوله عدد من الأنصار حتى خيف جانبه ، وهنا أرسل الخليفة إلى دبيس يأمره بالقبض على أبى الحسن وإرساله إلى بغداد ، فلم يعد هناك عذر لدبيس يتعلل به بعد أن فارق الأمير جواره ، ومد يده إلى أملاك الخليفة ، فقد سقطت عنه حقوق المستجير ، بعد أن مارس هذا النشاط العدائى ضد الخلافة . وقد امتثل دبيس لأوامر الخليفة فأرسل اليه من قبض عليه ، ثم حمله إلى الخليفة ، فعفا عنه (١١٠) .

(١٠٨) الكامل جـ ١٠ ص ٤٣٨ .

(١٠٩) المرجع السابق ص ٥٣٧ .

(١١٠) المرجع السابق ص ٥٣٨ ــ ٥٣٩ .

وإذا كان الخليفة ودبيس قد تجاوزا هذا الموقف حتى مر بسلام ، فإن هناك أموراً أخرى كانت سبباً فى توتر العلاقات بينهما فيما بعد ، ظلت تتطور ، وتتفاقم حتى أدت إلى المواجهة العسكرية بينهما منها : مطالبة دبيس بدار أبيه صدقة التى أدخلت فى جامع قصر الخلافة . وقد تجاوز المسترشد هذا الموقف أيضاً بتعويضه ماليا عن هذه الدار . ومنها أيضا مافعله دبيس فى عام ٥١٧ هـ عندما عين له جواسيس يطالعونه بأخبار الخلافة ، وكان منهم نقيب العلويين الذى قام المسترشد بعزله ، وإسناد نقابة العلويين إلى على بن طراد الزنيبى (نقيب العباسيين) (١١١) ولم يعين علوياً خلفاً له ، حتى لايتعاطف مع دبيس ، كما تعاطف النقيب السابق ، بالإضافة إلى أسباب أخرى أشرنا إليها فى معرض تناولنا لعلاقة بنى مزيد بالسلاجقة .

وإذا كانت الخلافة العباسية — فى نهاية المطاف — قد استطاعت بعد انتهاء حكم بنى مزيد لإمارة « الحلة » أن تنتزعها من أمراء الترك فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ وتجعلها تابعة بتبعية مباشرة لسلطانها ، فإن الخلافة قد تعرضت للتآمر عليها من جانب رعاياها من بنى أسد فى هذه المنطقة ، وذلك عندما توجه السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه لحصار بغداد فى ذى الحجة من عام ٥٥١ هـ / ١١٥٧ كى يفرض نفوذه وسلطانه على الخليفة المقتفى ، وأرسل أحد قواده إلى الحلة ليستولى عليها ، ثم يتقدم منها ليشارك السلطان فى حصار بغداد ، مستعيناً ببنى أسد الذين قدموا له كل عون ممكن ، وبخاصة السفن (١١٢) فلم ينس لهم الخليفة « المستنجد » هذا الموقف وكان قد تولى الخلافة إثر وفاة والده المقتفى فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ — فأمر فى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ بإجلائهم عن العراق لما ظهر من فسادهم ، ولما كان فى نفس الخليفة منهم بسبب مساعدتهم للسلطان محمد أثناء الحصار السابق ، وقد اسند الخليفة هذه المهمة للأمير « يزدن قماج » الذى حاصرهم ، ومنع عنهم الماء ، وكانوا منتشرين فى البطائح لايقدر عليهم أحد ، فاضطر إلى مطاولتهم مدة ، فأرسل إليه الخليفة يعنفه ، ويتهمه بالتواطؤ فى القضاء عليهم بسبب موافقته لهم فى المذهب الشيعى ، فجد فى قتالهم حتى استسلموا بعد أن قتل منهم مايقرب من أربعة آلاف ، ونودى فيمن بقى منهم : من وجد بعد هذا فى الحلة المزيدية فقد حل دمه ، فتفرقوا فى البلاد (١١٣) .

---

(١١١) الكامل جـ ١٠ ص ٥٤٢ — ٦١٧ .

(١١٢) المنتظم جـ ١٠ ص ١٦٨ — ١٦٩ وابن خلدون جـ ٤ ص ٢٩٣ .

(١١٣) الكامل جـ ١١ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

خاتمــة :

كان للزواج السياسى ــ فى هذه الفترة ــ أثره فى توثيق عرى الروابط بين القوى السياسية المختلفة ، وكان لبنى مزيد نصيب من النسب والصهر الذى وثق علاقتهم ببعض القبائل العربية ، والتركمانية ، والكردية فى العراق ، كما صاهروا بعض ذوى النفوذ فى عاصمة الخلافة . وقام النسب والصهر بدور فعال فى إصلاح مافسد من العلاقات بينهم وبين سلاطين السلاجقة : فقد زوج أبو الحسن على بن مزيد ابنه دبيس (الأول) بأخت أبى الشوك : فارس بن محمد (أحد أمراء الأكراد) وعمل هذا الصهر على منع الحرب من الاندلاع بينهما (١١٤) كذلك زوج صدقة (الأول) ابنه بدران من ابنة مهذب الدولة : السعيد أبى العباس أحمد بن أبىَ الجبر (أمير البطيحة) فكان هذا الصهر من الأسباب التى مكنت بدران وأمه ، ونساءه من اللجوء إلى البطيحة بعد مقتل والده صدقة . كذلك تزوج دبيس الثانى) بن صدقة من إبنة إيلغازى بن أرتق (أحد أمراء التركمان فى شمالى العراق) سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ فكان هذا الزواج سببا فى بدء مرحلة من التعاون بين الرجلين ، كما مكن دبيسا من أن يجد له ملجأ عند صهره عندما طارده السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وفرعن دياره فى عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ وقد أزعجت هذه المصاهرة السلطان محمود والخليفة المسترشد ، وأرسلا إلى إيلغازى يأمرانه بإبعاد دبيس عنه ، وأن يفسخ عقد زواج ابنته منه (١١٥) وقد أقام دبيس لدى صهره قرابة عامين اشترك معه فى اثنائها فى بعض الحملات التى قادها إيلغازى ضد مملكة « الكرج » المسيحية (١١٦) كما كان دبيس هذا زوجا لابنة عميد الدولة : ابن جهير (وزير الخليفة) وكانت حفيدة لنظام الملك (الوزير السلجوقى) وجاء هذا الزواج تتويجا لعلاقات قديمة ربطت بين البيتين ، وخاصة بين دبيس (الأول) وفخر الدولة : ابن جهير (والد عميد الدولة) كذلك زوج دبيس (الأول) ابنه وولى عهده : بهاء الدولة منصورا بابنة أبى الحارث البساسيرى فى عام ٤١٤ هـ / ١٠٥٢ فكان هذا الزواج أحد أسباب التعاون بين دبيس والبساسيرى إلى أن قتل البساسيرى قريبا من ديار بنى مزيد فى عام ٤٥١ / ١٠٥٩ .

---

(١١٤) الكامل جـ ٩ ص ٢٤٦ .

(١١٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٨ .

(١١٦) الكامل جـ ١٠ ص ٥٦٧ .

وعندما ساءت العلاقات بين بنى مزيد والسلطان مسعود إثر مقتل دبيس (الثانى) فى عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ كان النسب والصهر إحدى المحاولات التى بذلت لتحسين العلاقات بين البيتين : فزوج السلطان مسعود السلجوقى ابنته لصدقة (الثانى) ابن دبيس القتيل فى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ ثم تزوج هو بـ « سفرى » بنت دبيس وحفيدة الوزير ابن جهير وذلك فى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ (١١٧) .

وبعد فهذه صفحة من العلاقات التى ترسم بعض الملامح لعلاقات الإمارات الصغرى التى انتشرت فى العراق فى القرن الرابع ومابعده بالقوى السياسية الكبرى التى كانت تسيطر على مقدرات الأمور فى العراق والشام . وقد وجدنا أن علاقات بنى مزيد بهذه القوى قد تشكلت وفق مقتضيات الظروف والأحوال التى تواجهها ، حيث حرصت فى علاقاتها ببنى بوية على الحفاظ على مكاسبها السياسية والإقليمية التى حققتها فى دور النشأة والتكوين ، وقد اقتضاها هذا الأمر ألا تقف موقفا سلبيا من أطراف النزاع داخل البيت البويهى ، بل إنها كانت ترمى بكل ثقلها وراء الظرف الذى لايشكل خطورة على كيانها السياسى ، كما أنها وهى تتحرك فى هذا الإطار لم تسلم من الصدام مع بعض الإمارات فى شمالى العراق ووسطه التى كانت تقف مع الجانب الآخر من أطراف النزاع . وكما راعى آل مزيد — فى تحركهم هذا — الحفاظ على مكاسبهم ، وتحقيق المزيد منها ، فإنهم حرصوا من ناحية أخرى على التأكيد على ذاتيتهم العربية ، ومايتطلعون إليه من حقوق فى مواجهة ملوك العجم من آل بوية أو كبار الأمراء العسكريين من الديالمة والأتراك .

وحين وصل السلاجقة الى بغداد ، وهم فى عنفوان شبابهم وقوتهم ، ولم يكونوا كآل بوية الذين استغل بنو مزيد مظاهر ضعفهم فى التمكين لأنفسهم ، كان على آل مزيد أن يعدلوا فى استراتيجيتهم لدفع خطر هذا السيد الجديد . وهنا وجدنا زعيم هذا البيت الذى عاصر هذه الفترة وهو دبيس الأول (٤٠٨ هـ — ٤٧٤ هـ / ١٠١٧ — ١٠٨١) يحاول أن يمسك بعصاه من الوسط فى علاقته بالسلاجقة والخلافة العباسية ، فيبادر بإعلان الخضوع لطغرلبك ، وينفذ أوامره ، حتى إذا ماوجد جبهة جديدة تستهدف القضاء على نفوذ السلاجقة فى العراق بادر بالوقوف الى جانبها ، ورغم أن هذه الجبهة التى كانت ممثلة فى حركة البساسيرى كانت تستهدف القضاء على الخلافة العباسية ، فإنا وجدناه يبدى

---

(١١٧) المرجع السابق جـ ١١ ص ٤٧ ، ٦٥ .

استعداده الصادق للخليفة العباسى ـــ عندما أحدقت به الأخطار بعد دخول البساسيرى الى بغداد ـــ على أن يشمله بحمايته إذا ماخرج معه من بغداد ، وفى نهاية المطاف وجدناه يقف على عتبات السلاجقة يسألهم العفو والصفح ، ويعلن خضوعه الكامل لسلطان السلاجقة بعد أن أصبح هذا السلطان سيد الموقف بلا منازع . وقد توفى دبيس قبل أن يشهد تفكك البيت السلجوقى إثر وفاة ملكشاه فى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ ومن ثم لم يتمكن من الاستفادة من صراع أبناء البيت السلجوقى فى تحقيق مكاسب سياسية واقليمية جديدة لإمارته ، فكان على ابنه صدقة (الأول) وخلفائه من بعده أن يقوموا بهذا الدور ، لكنهم لم يحققوا النتائج التى سعوا إليها ، وأدى انغماسهم فى الصراع الدائر بين سلاطين السلاجقة إلى الإجهاز على كيانهم السياسى فى النهاية .

أما علاقتهم بالخلفاء العباسيين فقد ظلت تسير فى إطار من التعاون طيلة عصر القوة والتماسك فى حياة السلاجقة ، ومأأن بدأ الصراع داخل البيت السلجوقى وأدلى الخلفاء بدلوهم فيه ، حتى رأينا نمط العلاقات بين بنى مزيد والخلافة يتحول من النقيض الى النقيض . فبعد علاقات المودة والتعاون وجدنا العداء والنفرة ، والمواجهة فى ميادين القتال ، وبدا هذا واضحا فى مسلك دبيس (الثانى) تجاه الخليفة المسترشد : فقد تنقل دبيس بولائه بين السلاطين المتحاربين أملا فى تحقيق بعض المكاسب السياسية ، إن أن استقر به الأمر حليفا للسلطان مسعود الذى ظلت الأمور تتأزم بينه وبين الخليفة حتى إنتهت بهما إلى مواجهة عسكرية فى ميدان القتال ، اغتيل المسترشد فى اعقابها . فلم يجد مسعود بأساً من أن يحمل حليفة دبيساً تبعة دمه ثم يأمر بالقصاص منه غيلة وغدراً .

وبمقتل دبيس (الثانى) فى عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ نستطيع أن نقول : إن من جاء بعده من الأمراء لم يكن لهم تأثير قوى فى مسيرة الأحداث السياسية بعد ذلك ، وأوشك نفوذ هذا البيت أن يصل الى نهايته . ولقد وجهت إليه الخلافة الضربة الأخيرة عندما أصرت على تصفية رعاياه : وإجلاء من بقي منهم عن وسط العراق ، وضم منطقة الحلة إلى أملاك الخلافة ، لتحكم حكماً مباشراً من قبلها ، وقد أصبح ذلك ممكناً بعد أن ضعف شأن السلاجقة ، وأخذت الخلافة تستعيد الكثير من نفوذها الدنيوى فى منطقة العراق .

كذلك لاننسى الدور الذى قام به دبيس (الثانى) فى محاولة تنمية علاقاته بالقوى السياسية فى الشام ، وفى مقدمتها مملكة بيت المقدس الصليبية التى وقف حليفا لها فى حصار مدينة حلـب ، راجياً أن يتمكـن بمساعـدة حلفائه مـن السـيطرة عليهـا ، فيحكمهـا باسمهم .

كذلك فإن هذا البيت — فى علاقاته — قد سلك نفس السبيل الذى سلكته معظم القوى السياسية فى هذه الفترة لتوطيد أواصر العلاقات بين بعضها البعض عن طريق الزواج السياسى الذى كان له دوره الفعال فى توثيق عرى التعاون والتحالف بينها .

****

ملحـــق

أمراء بني مزيد وسنوات حكمهم

١ ـ مزيد الأسـدى

مؤسس الإمارة (لم تحدد المصادر تاريخ توليه أو وفاته)

٢ ـ سيف الدولة (على أبوالحسن)

(لم تحدد المصادر سنة توليه بدقة لكنه توفى فى عام ٤٠٨ /١٠١٧)(١)

٣ ـ نور الدولة : دبيس (الأول)

(٤٠٨ ـ ٤٧٤ / ١٠١٧ ـ ١٠٨١)

٤ ـ بهاء الدولة : أبوكامل منصور

(٤٧٤ ـ ٤٧٩ / ١٠٨١ ـ ١٠٨٦)

٥ ـ سيف الدولة : صدقة (الأول)

(٤٧٩ ـ ٥٠١ / ١٠٨٦ ـ ١١٠٨)

٦ ـ نورالدولة : دبيس (الثانى)

(٥٠١ ـ ٥٢٩ / ١١٠٨ ـ ١١٣٥)

٧ ـ صدقـة الثانـى

(٥٢٩ ـ ٥٣٢ / ١١٣٥ ـ ١١٣٧)

٨ ـ محمـد بن دبيـس

(٥٣٢ ـ ٥٤٠ / ١١٣٧ ـ ١١٤٥)

٩ ـ علـى بن دبيـس

(٥٤٠ ـ ٥٤٥ / ١١٤٥ ـ ١١٥٠)

---

(١) حدد استانلى لين بول تاريخ توليه بعام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ولكن ابن الأثير ذكر فى حوادث عام ٣٩٢ هـ أنه كان حليفا لبنى عقيل (أمراء الموصل) فى صراعهم مع جيشٍ بهاء الدولة البويهى (انظر : طبقات سلاطين الاسلام ص ١١٨ ، والكامل جـ ٩ ص ١٧٠ ـ ١٧١) ومأأشار اليه ابن الأثير يؤكد أنه كان على رأس إمارة بنى مزيد قبل التاريخ الذى حدده لين بول .

مصادر البحث ومراجعه

ابـــن الأثير : (عزالدين أبوالحسن على ت ٦٣٠) الكامل فى التاريخ . دار صادر بيروت ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبوالمحاسن ت ٨٧٤) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة

ابـــن الجوزى : (أبوالفرج عبدالرحمن ت ٥٩٧) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . دائرة المعارف العثمانية . حيدرأباد . الهند ط ١ ١٣٥٩ هـ

ابـن خلـدون : (عبدالرحمن ت ٨٠٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر . بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ

ابـن خلكـان : (شمس الدين أبوالعباس أحمد ت ٦٨١) وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان . تحقيق د. إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٨ .

ابن القلانسى : (أبويعلى حمزة بن أسد ت ٥٥٥) ذيل تاريخ دمشق. مطبعة الآباء اليسوعيين . بيروت ١٩٠٨

أبـو الفـــدا : (المؤيد عمادالدين اسماعيل ت ٧٣٢) المختصر فى أخبار البشر . دار المعرفة ببيروت (بدون تاريخ)

أسامة بن منقذ : (مؤيد الدولة أبومظفر ت ٥٨٤) كتاب الاعتبار . مطبعة جامعة برنستون . الولايات المتحدة ١٩٣٠

الذهـــبـــى : (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد ت ٧٤٨) دول الإسلام . تحقيق فهيم محمد شلتوت ، د. محمد مصطفى ابراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٤

رنسيمـــــان : (ستيفن) تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة د. سيد الباز العرينى . دار الثقافة ببيروت ط ١٩٦٧

ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام . ترجمة عباس إقبال ، ومكى طاهر الكعبى . بغداد ١٩٦٨ .

العماد الأصفهانى : (عماد الدين محمد بن محمد ت ٥٩٧) خريدة القصر، وجريدة العصر . دار الحرية للطباعة . بغداد ١٩٧٣

يوسف معلوف : المنجد فى اللغة والأدب والعلوم . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٦٦

هارى . و. هازارد : أطلس التاريخ الإسلامى . ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد . النهضة المصرية . القاهرة (بدون تاريخ)

هبة الله الشيرازى (المؤيد فى الدين) : سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة . تحقيق د. محمد كامل حسين . دار الكاتب المصرى . القاهرة ١٩٤٩

ياقـــوت : (شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦) معجم البلدان ٥ أجزاء . دار صادر بيروت ١٩٥٧

المراجـــع الأجنبية

History of The Crusades, Vol. 1 (Ed-K. M. Setton University Pennsylvania Press, Philadelphia, 1958.

Gibb : H. H. R. Zingi And The Full of Edessa. pp. 449-462.